حب بنكهة الموت

بيانات رواية حب بنكهة الموت:

- الرواية: حب بنكهة الموت
- الكاتبة: أمة الخالق الظفيري
- النوع: رواية
- تحرير وتدقيق وفكرة ولوحة الغلاف وكلمته: رياض حَمّادي
- تصميم غلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- المقاس: ٨.١٤×٢١ (a5)
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية نوفمبر ٢٠٢٥
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٣٧٥ لسنة ٢٠٢٤. رقم الإيداع في الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق، القاهرة: (٣٠٠٦٩ /٢٠٢٥)
- الترقيم الدولي، بالتعاون مع دار دان:

978-633-8284-17-6

فازت هذه الرواية بجائزة السرد اليمني (حَزاوي) ٢٠٢٤، برعاية بنك اليمن والكويت.
والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسمح الاقتباس في حدود الدراسات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى اسم الكتاب وكاتبه وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، وما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلِف لأخذ إذن خطي.

HAZAWI
للتنمية الثقافية

بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

HAZAWI
جائزة السرد اليمني

(روايـــــــة)

حب بنكهة الموت

تأليف

أمة الخالق الظفيري

٢٠٢٥

حزاوي HAZAWI جائزة السرد اليمني

YKB بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل YKB Inspiring the future

حزاوي HAZAWI للتنمية الثقافية

الإهداء

إلى "أمي" النور لحياتي،

من تخبز الأمل وسط تنور الألم،

من تستشف الحنان من غيبات القسوة.

وإلى كل نساء اليمن،

وإليّ بعد عشرة أعوام.

❉ ❉ ❉

"فقط أُريد نهاية لا أتذكر بعدها شيئًا مِما مضى"

❊ ❊ ❊

- آآآآي، أمي أنتِ تؤلميني.
- تحملي يا صغيرتي بقي القليل فقط.
- أمي، ادهني شعري بالزيت لكيلا يؤلمني.
- لا يوجد لدينا زيت.
- ضعي بدله السمن.

تحتضنني أمي والدموع على وجنتيها، وينظر إليّ أخي بحنق لأني جعلت أمي تبكي.

"دعاء" (٢٠٠٧م)

❊ ❊ ❊

صنعاء ٢٠٣٠م

أتاهم الاتصال ليلًا، وقبل وصولهم للموقع كان قد سبقهم الإعلاميون؛ دائمًا هناك عميل أو أكثر للإعلام تحت كل قلم وورقة في مركز الشرطة ينقل لهم الأخبار الطازجة وتتسابق لعرضه الصحف والقنوات. واليوم مثل كل مرة حضر الإعلاميون قبل رجال الشرطة، لكن أيًا منهم لم يجرؤ على الاقتراب من المبنى.

المبني على الطراز الجديد، في تلك المنطقة المظللة في "فج عطان". المعسكر من فوقهم والكلاب المسعورة بجانبهم والصحفيون والصحفيات من مختلف الأعمار، لا يخيفهم شيء سوى شابة في داخل بدروم العمارة اتصلت بنفسها للشرطة لتدلهم على مكانها وتخبرهم بجريمتها. ظل كبار الصحفيين ينظرون للشبان، من بهم نهم المعرفة وشجاعة الاكتشاف، وهؤلاء ينتظرون الإشارة من أكبرهم ليسيروا على نهجهم. مضى الوقت وهم يحدقون ببعضهم.

أتت الشرطة. ثلاث سيارات يستقلها ما لا يقل عن اثني عشر جنديًا بكامل سلاحهم، يتقدمهم ثلاثة ضباط ببدلاتهم الرسمية ومُسدساتهم على الجانب الأيسر من البنطال. أزاحوا الإعلاميين جانبًا وأحاطوا المبنى بشريط أحمر استعدادًا لخروج المجرمة. بدأ سواد الكاميرات يتلاشى بدخول بريق ألوانٍ

قادم من أضواء المبنى نفسه ومن كشافات الفضوليين. تقدم الضابط "رائد" بحذر ومسدسه في يده والعسكر من بعده. مرت دقائق.. والانتظار يأكل الجميع واللهفة سيدة الموقف. بعد ربع ساعة خرج رائد وأمامه شابة في أواخر العشرينات من عمرها رافعةً يديها ورأسها للأعلى بلا خوفٍ ولا خجلٍ من فعلتها الشنيعة. ورجال الشرطة يصوبون أسلحتهم فوق رأسها والإعلاميون يتساءلون بحذر عن نوع الجريمة التي ارتكبتها.

لم تعرهم أي اهتمام. تقدمت نحو سيارة الشرطة السوداء ودخلتها بعد أن ألقت نظرة حادة على إحدى الإعلاميات جعلتها تتجمد في مكانها. بدأ الخوف يتلاشى بعد خروج الشابة وإخراج الجثة على نقالة وهي مغطاة بملاءة بيضاء كي لا يشاهد أحد المنظر. حاول الجميع الدخول لكن الضابط رائد منعهم. كانت "نرجس" لاتزال متأثرة بنظرة الشابة. تقدمت نرجس نحو الضابط وأخرجت ورقة، ودون أن يفتحها سمح لها بالدخول مع مصور واحد إلى مسرح الجريمة، بينما احتج باقي الصحفيين والمصورين.

المبنى جديد، يظهر ذلك من تصميمه وديكوراته. اتبعت نرجس رائحة عفنة قادمة من البدروم. أرادت النزول أولاً لكن المصور نادر أشار بأنه سينزل قبلها. ومع تقدمهما كانت الرائحة تزداد قوة والخوف من المجهول يقترب. أخرجت منديلًا من حقيبتها سدت به أنفها وبدأ صدرها يضيق حين بدأت آثار الدماء بالظهور ومعالم الجريمة تتضح، ونظرات الشابة مازالت عالقة في ذهنها، وفي رأسها بدأ يدور فيه ألف سؤال.

كرسي خشبي مليء بدماء متخثرة وجد فيها الذباب وجبته المنشودة. حبل، عصا حديدية، منشار كهربائي، ساطور، خازوق خشبي، سوط. كان الضابط رائد قد حذرها من لمس أي شيء. أشارت لنادر ببدء التصوير والغثيان يسيطر عليها. فتحت فمها لتقول شيئًا لكن لم يخرج منه سوى ما في جوفها من طعام. جاهدت نفسها وغسلت وجهها وأعادت ترتيب هندامها وبعد ثلاثة.. اثنان.. واحد.. بدأ التصوير:

"أعزاءي المشاهدين، أهلًا بكم من جديد.. نحن في مسرح جريمة لا تخطر على بال بشر ولا يقوى قلب على تصورها. نعلم أن الإنسان قد يمر بضغوطات نفسية مهولةٍ، بسبب الأوضاع التي تمر بها البلاد: حرب، فقر، ظلم، خيانة... لكن ليس من حق أحد، تحت أي مبرر، أن يصل به الحال للقتل. فإن قتل فسيفعلها برصاصة أو بطعنة سكين أو حتى شنقًا أو بالسم. لكن جريمة اليوم فقد تجاوزت حدود الخيال وأظن أنها تفوقت على جميع أفلام الجريمة. تفاصيل الجريمة لم تُعرف بعد، وما ترونه الآن هي أدواتها لا أكثر."

أشارت نرجس بيدها نحو أدوات الجريمة. وواصلت التصوير:

"ما نعرفه أن زمن مصاص الدماء "دراكولا" قد ولى، وولت معه طريقته في خوزقة ضحاياه."

أظهرت الكاميرا خازوقًا خشبيًا وعليه آثار دماء، وما يبدو أنها قطع لحم، بينما صوت نرجس مستمر في وصف المشهد:

"كيف استطاعت فعل هذا؟ وكيف خطرت لها هذه الفكرة؟ نرى هنا ساطورًا "سكين الجزارين" ومنشارًا كهربائيًا وحبلًا وعصا حديدية وسوطًا. ويمكن للمخيلة أن تتصور ما جرى وما الجريمة التي ارتكبها المجني عليه ليُقتل بهذه الطريقة، التي تبدو الأولى من نوعها يمنيًا وعربيًا- إن استثنينا ما يحدث في أقبية المعتقلات. أعجز عن وصف بشاعة المكان ورائحته العفنة... فكيف استطاعت المجرمة البقاء هنا مع القتيل؟ أن تأكل وتشرب، وتشاهد ضحيتها يموت أمامها ودمه يتسرب منه ببطء! وما يثير الغرابة أكثر أن هناك أدوية، حبوبًا مقوية وفيتامينات! هل من يفعل هذا إنسان راشد؟"

(تصور الكاميرا علب العصائر والبسكويت والأدوية)

تسربت الرائحة إلى صدرها، فسعلت، ثم واصلت الحديث:

"أعزاءي المشاهدين، أتيت إلى هنا لأنقل لكم الحدث كما هو، رغم صعوبته البالغة، كي نعرف الحقيقة، ونترك الحكم للقضاء، وللعدالة أن تأخذ مجراها."

بعد خروجها من المبني تنفست بعمق. سألها الضابط رائد:

- كيف حالكِ؟
- بعد الذي رأيته لا اعتقد أني بخير.
- أخبريني كيف حال هويدا؟

نظرت إليه بحدةٍ وقالت:

- بخير، بأفضل حال.

تنهد رائد:

- إن قلت لكِ أن تخبريها أني مشتاق لها فلن تفعلي.
- صحيح يا حضرة الضابط... لن أفعل.
- إذًا ليس لي سوى الدعاء أن يرأف قلبها بي.
- ادعُ... فالدعاء قد يغير القدر.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

١

حسناء، مدينة حَجَّة، ١٩٧٠م.

كانت تكتفي بالقول إنها "متعبة". لم يعرف أحد ما وراء ذاك التعب والوجع الذي كانت تشعر به. تخبرهم، حين تزورهم كل سنة، بأن السواد الذي تحت عينيها سببه الأرق، لا البكاء كل ليلة. تبكي فيتداعى جسدها كله بالسهر انتظارًا لفرج لعله يولد كل صباح من رحم الأمل. كانت تكذب بشأن صحتها ووضعها المادي، كي تتفادى شفقتهم، ولإيمانها بأنهم لن يفهموا ما تشعر به. كانت مضطرة للصبر وإلى كتم ألمها؛ فالمجتمع لا يرحم المطلقات ولا يتركهن وشأنهن. إن تطلقت، ستحوم حولها الذئاب البشرية. لذلك، بقيت حسناء تحترق بصمتٍ، وكان الصمت أكثر ألمًا.

كانت "حسناء"، الطفلة، ذات الثامنة، تعتقد أن الحياة لم توجد إلا من أجل اللعب مع رفيقاتها في الحي. كن يلعبن بالتراب، يخلطنه بالماء ويصنعن منه ما يُشبه الكعك الدائري. يلصقنه على الجدار وبعد ثوانٍ تبدأ قطرات الماء بالتساقط منه راسمة خطوطًا على الجدار. بعد أن يجف، ينتزعنه بحذر باستخدام ملعقة ويضعنه في طبق. ثم يقطفن أوراق أشجار خضراء ويسحقنها بحجر صلب، مرة ومرتين، حتى تصير سائلًا أخضر. كانت تلك لعبتهن المفضلة.

تنهض صباحًا، تضفر أمها شعرها المجعد ضفيرتين، بعد أن تفرقه من المنتصف. ثم تنطلق للعب من شروق الشمس حتى غروبها، أي بعد أن تنتهي طاقتها الطفولية أو حين تسمع صوت والدها عائدًا من السوق وهو يصرخ كالرعد. تترك كعكها الترابي، تمسح يديها بفستانها وتجري إلى المنزل لغسل يديها وإزالة آثار التراب ومسحوق الشجر عن ملابسها. ثم ترتدي غطاء الشعر وتدخل المطبخ لتكون إلى جوار والدتها.

والد حسناء رجل ضخم البنية، فخيم الصوت، قاسي الطباع، ودائمًا ما يكون مقطب الحاجبين. ترتسم على جبينه خطوط تجهمه، وأسهل ما يجيده هو حمل السكين وذبح الأغنام والأبقار. يعود إلى المنزل بعد العصر وقد تلطخ ثوبه الأبيض ولحيته السوداء بالدماء. وعلى خاصرته حزام أزرق، وبطنه منتفخ بأموال متراكمة تحت ثوبه. في أحد الأيام استيقظت حسناء فلم تجد والدتها، بينما كانت زوجة عمها تطهو وجبة الإفطار. سألتها حسناء:

- أين أمي؟

أجابتها دون أن ترفع عينيها عن البصل المتوهّج في المقلاة، وعن القهوة التي راحت تغلي وتملأ المكان برائحتها:

- والدكِ طلقها.

لم تفهم حسناء يومها معنى الكلمة، لكنها شعرت أن والدتها لن تعود إلى المنزل، وأنها لن تستطيع هي أيضًا الذهاب إليها. منذ ذلك اليوم، قل خروج حسناء للعب؛ خوفًا من والدها أن يكتشف أمرها فيعاقبها وأمها لم تعد

موجودة هناك لتحميها وتدافع عنها. وذات يوم، وبينما كان والدها خارج المنزل، جمعت حسناء ما تبقى من ملابس والدتها في كيس أحمر، وغطت شعرها بالطرحة الزرقاء وهربت مستغلة انشغال زوجة عمها. بعد أن قطعت شوطًا طويلًا بعيدًا عن المنزل خلعت الطرحة، وكأنها بذلك تتحدى والدها، والسعادة على محياها، وفي ذهنها راحت تتخيل لقاءها بأمها وهي تحتضنها بشوق. في وسط السوق، رأت والدها... كان يقطع اللحم بساطوره الضخم، وثيابه البيضاء ملطخة بالدماء، والرجال يتزاحمون من حوله، يستعجلونه في تلبية طلباتهم.

التقت عيناها بعيني والدها.

عاد إلى المنزل بعد العصر وحسناء في عينيه. تدخَّل أخوه لكي يعفو عنها، وتدخلت زوجته، لكنه كان كالدابة، بل أقل فهمًا منها. ضربها بينما هي تستنجد بوالدتها الغائبة. ظل يضربها إلى أن كسر يدها واحمر وجهها.

حسناء الطفلة ذات الثامنة، زوَّجها والدها، بعد أن طلق والدتها، لضابطٍ يدعى "عامر". وأخذ مقابلها أخت عامر "صفية" زوجة له. لم تدرك حسناء يومها أن بزواجها انتهت طفولتها، وانتقلت إلى مرحلة الرُشد، دون أن تعرف، أو تعي ما هو الزواج.

كانت حسناء طفلة بيضاء، ذات شعر أسود مُجعَّد، وجسد مثل عقلة الإصبع. لم تكن مهيأة للزواج. ارتدت الفستان الأبيض وامتلأ وجهها بالأحمر والأخضر، وبأمر من والدها تزين منزلهم كما لم يتزين من قبل. ظنت يومها

أن الزينة لها، ولم تدرك، لصغر سنها ومحدودية تفكيرها، أن تلك الزينة كانت استقبالًا لزوجته صفية.

صرخ أئمة المساجد معلنين صلاة العصر. بالنسبة لحسناء كان ذلك إعلانًا بوقتها الخاص للعب. همت للخروج بفستانها الأبيض، ووجهها الذي اختفت ملامحه الطفولية، لتلعب في الشارع مع الصبية. رآها والدها فصفعها على خدها ليزيده احمرارًا من نوع آخر:

- اتركي الجنون، أنتِ الآن امرأة متزوجة.

عادت إلى المنزل دون أن تنزل دمعةً واحدة، كي لا يضربها والدها أكثر، وهي تفكر في معنى كلمة "متزوجة": هل هي مثل كلمة "مطلقة"، التي تطلق على والدتها؟ وهل هذا يعني أنها كذلك ستخرج من المنزل وتذهب إلى والدتها ولن تعود؟ ابتسمت، وقد شعرت أن تفكيرها صحيح، وأنها ستذهب بعد قليل إلى والدتها. اعتلت الكرسي لتراها النساء اللواتي كن يرقصن من حولها بابتسامات تشق وجوههن. تمنت وقتها أن تقول لها إحداهن: "اخرجي للعب في الشارع"، كما كان يقال لها عندما كانت تذهب إلى الأعراس مع والدتها وترى العروس على دكة مرتفعة. كانت تتطلع إلى العروس كما لو أنها كائن غريب، وتدور في رأسها أسئلة:

لماذا هي أعلى من الجميع؟

لماذا فستانها أبيض ووجهها ملون؟

لماذا اسمها "حريوة"؟

أسئلة كثيرة، لكنها لم تسأل نفسها يومًا: لماذا لا تكون مثلها وتجلس وترتدي فستانًا أبيضَ؟ عقلها لم يُسعفها وقتها.

زُفت ليلًا. خرجت من الباب في الدور الأول، ودخلت صفية من باب الدور الثاني، حيث كان والد حسناء بانتظارها، تاركًا إياها في يد خالها دون أن يودعها. صعد معها خالها إلى السيارة، بعد أن اكتست بالسواد الحالك، وصوت الطلقات النارية يخترق أذنيها، وهي تخفي رأسها في صدر خالها، والأمور تختلط عليها: هل هذا استقبال لصفية أم وداع لها؟!

جسدها مُتعب من طول المكوث على الكرسي، ورأسها يؤلمها من التفكير. سألت خالها:

- خال، إلى أين نذهب الآن؟
- إلى منزل زوجكِ عامر.

صُعِقت عند سماع إجابته:

- لا. سنذهب إلى أمي، أنا متزوجة مثل أمي... مطلقة.

حشر خالها القات في فمه وهو يضحك. تحركت السيارة، ومن خلفها سيارتان أخريان تمتلئان بعمَّاتها والكثير من أهل والدها، لكن لم تحضر والدتها أو أحد من أهلها. نصف الطريق مُعبَّد ونصفه الآخر غير مبعد، للوصول لمنزل "عبد الواحد" شقيق "عامر"، حيث ستقيم مؤقتًا بسبب سفر عامر المتواصل. فهو كما يقولون من ضباط الحرس الشخصي للرئيس "عبد الرحمن الإرياني".

دخلت المنزل وهي تتشبث بيد خالها، والطبول تُقرع، و "المُزَيِّنة" تنشد، والنساء يمسكن الشموع الصفراء على طول الممر، وحسناء تكاد تُدهس بين أقدامهن لولا المسافة الصغيرة بينهن وبين خالها الذي يكاد يحتضنها. أخيرًا وصلت إلى آخر غرفةٍ في الممر حيث استقبلتها "غالية"، عمتها المستقبلية. دخلت الغرفة معها وأغلقت بابها بالمفتاح ودسته في صدرها. أشعلت الفانوس الأصفر، وهناك رأت حسناء والدتها "فاطمة" فاتحة ذراعيها لاحتضانها. اندفعت حسناء إلى حضن والدتها، ولم تعرف لِمَ كانت تبكي، لكنها بكت معها وهي تمرغ أنفها في صدرها، وتشبع رئتيها برائحة والدتها. همست فاطمة في أذن ابنتها وهي تبكي:

- سامحيني يا ابنتي... سامحيني. أصغي لكلام زوجكِ، ولا تغضبيه أبدًا. أطيعي عمتكِ غالية، فهي طيبة وستقف إلى جانبك.

طُرق الباب بينما كانت غالية تُسرع في خلع ملابس حسناء السوداء، بلا خجلٍ، وفاطمة تساعدها في إلباسها الفستان الأبيض مرةً أخرى. ابتلعها الفستان ولم يبقَ إلا وجهها الملون والمخضب بدموع سوداء مسحتها لها فاطمة بطرف كمها وهي تقبل وجهها. أطفأت غالية السراج الأصفر وخرجت مع حسناء وسط زغاريد النساء وصخب الطبول. دخلتا الغرفة المجاورة حيث النساء يفترشن الأرض ولم يكن يظهر منهن شيء سوى أيديهن. في مقدمة الغرفة كرسيان، جلست على الكرسي الأيمن وخمنت أن الكرسي الأيسر هو لمن يسمى عامر. أسدلن الغطاء الشفاف الأبيض على

وجهها، بينما كانت تفكر أنها قد رأت هذا المشهد من قبل:

سيدخل العريس، وهو مغطى بالفل من رأسه حتى قدميه، وبيده سيف أسود يسنده إلى كتفه. سيضع يده اليمنى على رأس العروس ويتمتم بكلماتٍ لا تعرف معناها ثم يرفع الطرحة البيضاء لتبدأ النساء بالزغردة من جديد والفتيات بالتصفيق.

انتظرت دخول عامر، وبفضول طفلةٍ تريد الاكتشاف، رفعت رأسها لتراه، لكن إحدى النساء أمسكت برأسها وأجبرتها على خفضه نحو الأرض. دخل عامر. أمسك رأسها، والصمت سيد المكان، ثم رفع طرحتها ورفعت هي رأسها حين أمسك بذقنها بكفه الخشنة ليرى وجهها، قائلًا:

- ما شاء الله، ما شاء الله.

لم يكن يرتدي فُلًا، ولا يحمل سيفًا، وكان شعره الأشعث المجعد يغطي أذنيه، وأنفه البارز أول ما يظهر في وجهه. يرتدي ثوبًا أبيض بجنبية في خصره، والشال ملقى على كتفه الأيمن بإهمال. النساء يزغردن، والفتيات يصفقن، بينما هو يمسك بيدها ويأخذها إلى غرفتها وسط استسلامها التام لمصيرها المجهول.

حسناء الطفلة ذات الثامنة، أدخلها الغرفة، وخلع طرحتها البيضاء ثم فستانها الأبيض وألقاها على الفراش أرضًا. قبل قليل كانت غالية وفاطمة قد خلعتا ملابسها، لكنها لم تحتج ولم تعارض؛ فهنّ نساء مثلها، لكن كيف لرجل أن يفعل هذا بها، وهي التي تربت على الحشمة والعفة والستر؟ دارت الأفكار

برأسها، فأمسكت يده لتمنعه.

- أبي يقول عيب هكذا.

ضحك بقوة، وهمس في أذنها:

- كل الناس يفعلون هذا، وليس نحن فقط.

لم يراعِ أنها بلا أُم تُعلمها ما سيحدث في هذه الليلة، ولم يأخذ في حسبانه أن جسدها صغير ولم يتهيأ بعد للنوم مع رجل في السابعة والعشرين. أخذ "حقه الشرعي" كما يسمونه، بسرعة. لم يستغرق الأمر منه سوى ثلاث دقائق. تعرق بعدها جبينه وهدأ جسده وارتمى على ظهره مغطيًا جسده باللحاف وغطَ في سباتٍ عميق. لم تشعر حسناء سوى بجسدٍ صلبٍ يخترق أسفل بطنها ولم يسعفها الوقت للصراخ، ولم ترَ شيئًا بسبب العتمة. وبعد أن سمعت شخيره، بكت، دون أن تعرف سببًا واضحًا لبكائها. كل ما أرادته وقتها هو حضن والدتها، واستنشاق رائحتها، وإغلاق عينيها، وأن تسمع منها قصة الفتاة التي خانت الأمانة التي أعطتها إياها أمها، وهي قصة صارت حسناء تحفظها عن ظهر قلب، وكانت ترددها كل ليلة:

- كان يا مكان في قديم الزمان، بنت صغيرة لا تسمع كلام أمها، وأمها لا تضربها أبدًا، لكنها تريدها أن تسمع الكلام. وفي يوم أعطتها أمها ظرفًا مغلقًا لتوصله إلى مكان آخر. لكن... ماذا فعلت البنت في الطريق؟

تجيب حسناء:

- فتحت الظرف.

نعم، فتحت الظرف، وطارت الفراشات الثلاث التي كانت داخله، وبكت البنت، وعادت إلى أمها وهي تشعر بالذنب، لأنها لم تسمع كلام والدتها.

تكمل حسناء:

- ومن يومها والبنت تسمع الكلام.

الآن، حين لم يعد هناك حضن أمها الدافئ، ولا رائحتها العطرة ولا قصتها المعتادة، أدركت أن المرأة المتزوجة ليست كالمرأة المطلقة. الزواج يعني منزلًا جديدًا وحياةً جديدة، أما الطلاق فيعني البيت القديم، والحياة القديمة.

❋ ❋ ❋

٢

تخطئ حسناء في إعداد الشاي فتتلقى ركلتين إلى ثلاث ركلات من عامر. تنسى غسل أحد أزواج جواربه المخصصة للزي العسكري فتتلقى لكمتين أو ثلاثًا في وجهها. عامر يتحدث وينظر ويتفاهم بيديه ورجليه، وتزداد عدد الضربات كل مرةٍ إن لم تكن عمتها غالية موجودة للدفاع عنها. وجهها على الدوام ممتلئ بالألوان وجسدها الأبيض يغدو أخضر، وشعرها من شدة السحب والشد كاد يصير حريريًا. تستفيق بضربةٍ على جسدها ولا تنام إلا بعد أن يتقطع شعرها وتحمّر عيناها وتتشرب أهدابها الجافة من ينابيع عينيها الحمراوين. ودائمًا هي المخطئة وهي الكاذبة والمهملة، وهي التي تتسبب في غضبه، ولأنها لم تتربَّ في بيت أبيها فهي تستحق التربية على يديه. يكرر على مسمعها دائمًا:

- أنتِ جاهلة وغبية وطوال عمركِ بين البقر والغنم. يحق لي أن أضربكِ في الوقت الذي أشاء. قال الله تعالى "واضربوهن". ستبقين طوال عمركِ غبية وبين الأغنام والأبقار. قولي لي، هل تعرفين ما هو حصار السبعين أو تشكيل لواء العاصفة في السُّخْنة؟
- لا، لا أعرف.
- أنا كنت من أوائل القادة الذين شكلوا لواء العاصفة وحاربوا

الملكية. هل تعرفين معنى الملكية يا حسناء؟

- لا.
- ألم أقل لكِ أنكِ جاهلة؟ الملكية يا حسناء هي حكم الدولة بالتوريث، يموت الأب فيتولى ابنه الحكم من بعده، وتكون الدولة ملكية. لكننا الآن جمهورية، نختار حاكم الدولة كما نحب. هل تعرفين أين تقع السخنة؟
- لا.
- لأنكِ جاهلة يا حسناء، وستظلين طوال عمركِ جاهلة. السخنة في الحديدة حيث أعمل يا جاهلة.

ذهبت يومها صباحًا إلى والدها تشتكي عامر، وهناك رأت صفية لأول مرةٍ. كانت امرأةً بحق، تملأ العين، فارعة الطول، ممتلئة القوام، ولها ملامح حادة وصوت أجش وعينين كعينيّ الصقر. كذبّت صفية شكوى حسناء أمام والدها، قائلةً لها:

- أخي عامر ضابط في الجيش وألف واحدةٍ غيركِ تتمناه. وإن كان يضربكِ، فهذا لأنكِ تستحقين الضرب. اعتاد أخي على الرجولة وأنت امرأة لا تستحقينه. كوني مطيعة، واسمعي كلامه، ولن يضربكِ. أنتِ المخطئة... اصبري، كل النساء يصبرن. عاصر أخي كل الحروب والرؤساء، وهو الآن يرغب في راحة لا تجيدين توفيرها له.

عادت حسناء يومها محملة بخيبة الأمل وكسرة الخاطر وببذرةٍ صغيرة بدأت تتحرك في أحشائها. لديها أب ليته لم يكن في الوجود أساسًا. لم تجد الاحتواء في حياة والدها، فأين ستجده؟ وفي كنف من؟

وكَّلت أمرها إلى الله وعادت للمنزل وهي تحث نفسها للعمل بنصيحة صفية: "اصبري". فتحت باب المنزل بمفتاحها الخاص. وجدت البيت هادئًا إلا من صوتٍ خافت. تتبعت مصدر الصوت لتجده يأتي من غرفة سِلفتها، زوجة "عبد الواحد"، شقيق عامر الأصغر، المقيم في السعودية. لم تطرق الباب، فتحته بسرعةٍ بعد أن سمعت كل الحوار:

- المال الذي يرسله لكِ عبد الواحد، اشتري به ذهبًا ثم اطلبي الطلاق منه ودعي مصاريف المنزل على أمي، لا تصرفي أنتِ شيء.
- أنا أفعل هذا، أطلبه فوق طاقته ليعمل دائمًا ولا يعود لليمن.

جملتان، إن سمعهما أحد غير حسناء فسيُفسر الكثير. لم يكن عامر قاسي القلب وغليظ اليد وبذيء اللسان وبخيلًا فقط، بل كان منعدم الضمير، قليل الدِّين، وبلا أخلاق. حدثت حسناء نفسها قبل أن تفتح الباب عنوة: كيف يفعل هذا بأخيه الذي فتح له منزله وائتمنه على زوجته؟! ولأن حسناء صغيرة ومندفعة فتحت الباب فجأة وقالت:

- سأخبر عبد الواحد بخطتكما ضده.

قالتها على سبيل الدُعابة أو المُزاح. قالتها بغباءٍ تام، وهي لا تعرف ماذا تقول.

انقض عليها عامر يضربها كما لم يفعل من قبل. ضربها إلى أن أُغمي عليها. فقدت الوعي أو أنها أرادت فقدان الوعي فاستجاب جسدها لعقلها وغادرت الواقع مُستنجدةً بالخيال.

استفاقت، لا تعرف بعد كم من الوقت، وقد غُيِّرت ملابسها، ولا تزال هناك بُقع من أثر دم خرج من فرجها. كان جسدها بأكمله يصرخ ووجهها يتصبغ بالألوان. أول سؤال وجهته لغالية حين استفاقت:

- أين عامر؟
- سافر إلى الحديدة.

شعرت بالأمان، وبكت بحرقة من ألم قلبها قبل ألم جسدها. بكت على نفسها وعلى أول طفلٍ تفقده. بكت على فقدانها والدتها، وقسوة والدها. بكت على حالها، وعلى حال الدنيا التي وضعتها في هذا الموضع. بكت من قلة الحيلة، فليس لها غير البكاء. بكت، في عمر يفترض أن تضحك فيه، وستظل طوال حياتها تبكي دون دموع بعد أن استهلكت مخزونها منها في ذلك اليوم.

بعد فترة وجيزة، أُعلن خبر طلاق عبد الواحد عن زوجته. تساءل الجميع عما حدث بينهما، وقد كانا كالسمن على العسل! راح الناس يخوضون في نسج القصص ويخمنون أسباب الطلاق: منهم من قال إن السبب هو سفره، وآخرون قالوا إن عدم إنجابه هو السبب، وأن العيب قد يكون منه أو قد يكون منها. وحدها حسناء رأت وسمعت ودفعت ثمن ما عرفته، لكنها صمتت

خوفًا من هول مصيرها على يد عامر. آثرت العيش بصمت فلن تفيدها الثرثرة بشيء.

أتت والدتها لزيارتها بعد سماعها خبر إجهاضها. عرفت سبب الإجهاض حين رأت وجهها الملون وجسدها المتورم. وفي غياب غالية، دعت فاطمة على عامر بالشلل في يديه ورجليه ثم بالموت بعد أن يتمناه ولا يجده. لم تفتح حسناء فمها بشيء، أما غالية فهي تعرف ابنها جيدًا، تعرف ما فعله، وتعرف أنه عذابٌ من الله ونقمة، وعليها الصبر والاحتساب. كانت تشفق على حسناء ولا تتعجب من والدها حين زوَّجها لعامر؛ فهو مثل باقي الرجال يريد زوجة له. لم يكن يرغب في صفية بعينها، كان يريد أي امرأة تملأ له فراغ حياته.

ولأن حسناء لا تزال صغيرة، كانت غالية توقظها فجرًا لشرب اللبن وأكل التمر والصلاة. كانت تقف إلى جانب غالية وتسجد وتركع ولا تقرأ شيئًا، لكنها كانت تشعر أنها قامت بأعظم إنجاز في حياتها. كان لها ثوب صلاة أبيض وسجادة مخصصة لها. وحين علمت غالية أن حسناء لا تعرف الصلاة، ولسانها يتمتم بأي شيء، غمرتها بحضنها وعلمتها الصلاة خطوة خطوة.

تنامان بعد الفجر، حتى السابعة صباحًا. ثم تذهب حسناء لرعي الأغنام، بعد أن تملأ لها عمتها قربة الماء وتضع لها، في الكيس، الخبز المدهون بالسمن البقري وقنينة اللبن. تذهب للرعي وهي مرتدية قبعة قش يغطي ظلها كامل وجهها ورقبتها، وترتدي الثوب الأسود الذي غالبًا ما يكون مشدودًا من الخصر، مفتوحًا من أسفل الساقين، بحذائها الأسود البلاستيكي "القنطرة"،

وفي يدها اليمنى عصا وعلى يدها اليسرى قفاز يساعدها في قطع الأعلاف بـ "الصريم"، وهي تدندن بأغنية سمعتها من أحد الرعاة.

لم تعرف معنى الأغنية أو ما المقصود بها، لكنها تدندن بها من باب التسلية. وحين تسمع الرجال يتحدثون بكلماتٍ لا تفهمها مثل: الجمهورية، الملكية، لواء العمالقة، لواء المغاوير، مجلس الشورى... وأن الطابع المدني حاليًا يغلب على النظام البرلماني، تتذكر عامر وضحكه عليها ونعته لها بالجاهلة. تتردد الكلمة في مسامعها، وتلقائيًا تضع يديها على أذنيها وتعبر مسرعة من أمامهم، وكأنها تهرب من عامر.

كانت أيامهما تلك مملوءة بالهدوء والسكينة، فبعد إنجاز الأعمال، تخرجان في العصر إلى الزيارات النسائية والمجالس التي تمتلئ، خلال ساعاتٍ طويلة، بالهمز واللمز، وبنظرات الغرور والحقد والكِبر. وملابس العصر، بالتأكيد، تختلف عن ملابس الصباح. بعد الصلاة، تُخرج غالية كُحلها "الأثمد" من علبته الحديدية الذهبية المنقوشة، وتضع لحسناء قليلًا منه بدقةٍ وحرفيةٍ وكأنها ترسم به عينيها. تذكرت حسناء أول مرةٍ وضِع لها الكحل. أغمضت عينيها وقلم الكحل لا يزال يرسم، فنزلت دموعها سوداء، لكن مرةً بعد مرة اعتادت عليه.

ترتدي النساء ما يشبه الفساتين الحمراء المنقطة أو المشجرة بمختلف الألوان، وبيد كل واحدة منهن كيس به حُزمة قات وقنينة ماء. تبدأ معركة النساء في المجالس بإثبات أيهن أفضل وأجمل، وأيهن أصدق قولًا، وكل

واحدةٍ تريد إثبات كفاءتها في الحياة. تمتلئ المجالس بنساء متزوجات من الأعمار كافة. وتُمنع العازبات منعًا باتًا من حضور هذه المجالس، ويصنف حضورهن تحت قائمة الـ "عيب". في هذه المجالس، لا تستطيع تمييز صوتين بوضوح إلا ويخالطها الشك بصحة ما سمعت. هذا غير وصفات الأعشاب السحرية التي ينصحن بها بعضهن تحت بند "اسأل مجرب ولا تسأل طبيب": من تريد بياض الجسد تستخدم الكُركم الخام، وللسُعال "زيت الزيتون مع الليمون والعسل"، و الـ "صبَّار" للوجه والشعر، و "بول الإبل الذكر" سحري ويجعل الشعر حريريًا... وتنهي وصفتها قائلة:

- جربيها وادعي لي. اسألي مجرب ولا تسألي الطبيب.

يعُدنّ لمنازلهن بعد الانتهاء من تدخين "المداعة"، أي قبل انتهاء أذان المغرب بالضبط، وكأن لديهن منبهًا في رؤوسهن. يتقافزن وصوت المؤذن يصدح بـ "الله أكبر" معلنًا بذلك وقت الصلاة من ناحية، ومن ناحية أخرى محذرًا من كارثة قد تقع لكل من تصل منزلها بعد انتهاء الأذان. بعد صلاتي المغرب والعشاء، تُلقِّن غاليةُ حسناءَ ما تحفظه من القرآن. تبدأ بالفاتحة ثم المعوذتين، وصولًا إلى سورة المسد والكافرون وآية الكرسي وبعض من الأدعية المأثورة مثل سيد الاستغفار. تنتهي عند هذا الحد محفوظات غالية التي تراها عظيمة، وتقابل بامتنان من جهة حسناء. تتناولان العشاء، المكون غالبًا من العدس الأسود أو البيض المقلي ثم تخلدان إلى النوم لتستيقظا باكرًا وتُعيدا من جديد الطقس نفسه دون كللٍ، وبرضا تام، وقلب مفعم بالحياة.

أُمي

أهُناك ضِماداتٌ للروحِ؟

إني أنزف من كل فجٍ عميقٍ!

ولم أنلْ حتى استراحةَ مُحارب!

بحثتُ عن الحرب الدامية التي خُضتُها، فأدركتُ أني صارعتُ البحر.

ألصقتُ جسدي بعملياتٍ جراحية وأخرى تجميلية، لكني لم أجدْ بعدُ ضِماداتٍ لروحي المهشمة.

"دعاء"

❊ ❊ ❊

٣

يشترك "عبد الواحد" وعامر في اسم الأب والعائلة والدم فقط، أما الفارق بينهما فهو كالمسافة بين السماء والأرض. يمكن رؤيتهما في الوقت نفسه، لكنك لن تستطيع الوصول إلى السماء وأنت في الأرض أو العكس. تآمر عامر على أخيه، فلما علم عبد الواحد بما فعله، طلق زوجته وأرضاها بمبلغٍ ضخمٍ من الريالات السعودية، حتى لا تشوه صورة أخيه الأكبر. سامح عامر بقلبٍ كبير، بعد أن التمس له آلاف الأعذار تحت شعار "الدم لا يصير ماءً".

قبل عودة عبد الواحد من سفره، لم تكن حسناء تعرف سر سعادة غالية وصفية بخبر عودته. وحين رأتهُ عرفت السر. أدركت أنه كما أن في الأرض شياطين فعليها أيضًا ملائكة. لم يعد عبد الواحد من السفر محملًا بالذهب والمال فقط، بل كان محملًا بالحُب والسلام. هما أول ما يظهر منه حين تنظر إلى عينيه، ولسانه لا ينطق إلا خيرًا. قبّلَ قدمي أمه، وأخذ صفية في حضنه، واكتفى بابتسامةٍ وسلامٍ باليدِ لحسناء. أغدقهن بالذهب، ولم ينسَ حسناء. أحضر لها خاتمًا يُفتح بمفتاح ذهبي، ويُثبَّت في أصبعها بعد غلقه بالمفتاح. أهداها حُليًا أخرى، لكن الخاتم ذو المفتاح كان الأعجوبة الوحيدة. تفتحه في الصباح لتخرجه من أصبعها وتعود في المساء لارتدائه. منذ ارتدته لم تعد تتحدث مع النساء بفمها، بل بيدها من باب إغاظتهن، ومن باب الكِبر النسائي الذي تعلمته في فترةٍ قصيرة. كان عبد الواحد لطيفًا معها، وكان مختلفًا عن

عامر، وكم تمنت لو أنه زوجها. رأت احترام صفية له، وسمعت، في جوف الليل، دعاء أمه له بالتوفيق. رأت مليًا حب الناس له. راقبته وهو يقرأ القرآن مجودًا، ورأته فجرًا وهو ذاهب إلى المسجد. رأت عطفه على الفقير ومساعدته للمُحتاج وتلبيته لنداء المعروف والغريب. رأته وهو يتناول اللقمة بعد أمه، ولا ينام إلا بعد نومها، وكيف يفرحه فرحها ويحُزنه حزنها. لقد أحبت عبد الواحد، لأنه رجل... رجل يستحق الحُب.

بعد أيام من عودته، أعلن لوالدته عن رغبته في الزواج للمرة الثانية، وقد تحقق له ذلك خلال شهر واحد. لم يُقم عرسًا، واكتفى بوليمةٍ تجمع الأهل والأقارب على سبيل الإشهار. غبطت حسناء زوجته الجديدة، خصوصًا بعد أن رأت السعادة في عينيها. لم يحظَ عامر، أو بالأحرى، لم تكن لديه الجرأة لمقابلة أخيه. وبعد سفر عبد الواحد عاد عامر ليُخرج من ظهورهن كل لحظةٍ سعيدةٍ عِشنها بوجود عبد الواحد. أول ما فعله عامر هو استجواب حسناء، التي لقنتها غالية ما ستقوله.

- هل أعطاكِ عبد الواحد ذهبًا أو ريالات سعودية؟
- لا.
- وهل أعطى أمي أو صفية؟
- لا. أتى ليتزوج ويعود من حيث أتى.

انقلبت حياتهن رأسًا على عقب، ولم يعرفن حلاوة الأيام إلا بعد تذوق مرارة

عامر. تخرج حسناء للرعي وتتمنى ألا تعود إلى المنزل، بينما غالية والعروس الجديدة تعملان في المنزل بجهد لإرضاء معدة عامر ليلًا ونهارًا. مع الوقت، عرفت حسناء أن عامر بلا دين ولا أخلاق، فهو كاذب وسارق، ولا يؤتمن على شيء، وليس أهلًا للمسؤولية. لكنها لم تعرف أنه عاق إلا يوم ضرب والدته غالية وركلها مرتين، لأنها لم تغسل القات جيدًا. عرفت يومها أن عامر ليس فيه خير حتى لنفسه، وخافت منه أكثر، لأنه لا يخاف الله. استغربت: كيف للرئيس "عبدالرحمن الإرياني" أن يوظف شخصًا مثل عامر لا يؤتمن على عِرض أخيه؟ لم تكن تعرف أن النفوس مثل القبور، لا يعرف أسرارها وعمل أصحابها إلا خالقها. ولم تفهم سر هذا التناقض البشري إلا حين قالت لها غالية:

- يا بنتي، من خارج "الله الله"، ومن داخل "يعلم الله".
- كيف هذا يا عمة؟
- عامر موظف كبير، وراتبه ألفين ريال، لكن لا نرى منها شيئًا.
- أين يذهب به؟
- يوزعه للناس، يشتري للرجال قاتًا، ويتفاخر أمامهم، ولا أحد يصدق عندما نشتكي منه.

كانت غالية تحرص ألا ينفرد عامر بزوجة عبد الواحد، كي لا يفسد عقلها ويبث فيه السموم ضد أخيه. لكن إلى متى ستظل تنتبه لحسناء وللمنزل

ولعامر وللعروس وللأغنام وللزراعة؟ لكن حدث ما لم تكن تتوقعه غالية: لم تخضع العروس الجديدة لعامر، فجرب معها أسلوب التنفير.

يزعجها بصراخه فجرًا ويطرق بابها بعذرٍ ودون عذر. صب عليها مرةً الشاي مُتعمِدًا وتظاهر بأنه لم يقصد. يشوه صورتها أمام الناس، ويرسل وراءها من يتتبعها: أين تذهب؟ ومن أين تعود؟ ومع من تمشي؟ ضاقت بها الأرض بِما رحُبت، واشتكت لأهلها، وفي النهاية طلبت الطلاق. تكفل عبد الواحد بالأمر، بعد اتصال غالية، فطلقها وأرسل لها مع الذهب مبلغًا من المال. بكت يومها حسناء، ثم ذهبت لوضع قلبها في حِجر والدتها. غابت عن الوجود، وهي تستمد الراحة من حضن أمها، وعقلها يتمتم: ما الذي فعلته وهي في سن الثامنة ليعاقبها الله بعامر؟

تستمر حياة غالية وحسناء بالسير في رتابةٍ وخواء روحي. تعملان بوهن، كجسدين بلا روح، وقلبين بلا حياة ولا شغف، مثل رجال آليين بلا مشاعر ولا دماء ولا طاقة للتحمل. صباحهما مظلم مثل ليلهما، وهما في سعي دائم لخدمة عامر، خوفًا من بطشه.

ذات صباح استفاق وهو يشتهي اللبن:

- حسناء، انهضي لحلب البقرة الآن.
- لا أعرف. عمتي غالية هي التي تحلبها.

غَضِبَ، واحمّر جبينه، وانتفخت أنفه أكثر مِمَ هي عليه. شدها من شعرها، ورمى بها إلى الحظيرة، وقبل أن يُغلق الباب، قال:

- لن تخرجي إلا بلبن.

رأت البقرة تأكل حشيشها، والماء في وعاء بجانبها. حجم البقرة ضخم ويبعث على الرعشة، لونها بني وضرعها أبيض. تقدمت بقلبٍ خائف، وجلست تحت البقرة، وبهدوء أمسكت ضِرعها لأول مرة. قامت البقرة برفسها مرةً واثنتين وثلاثًا، ولم تهدأ إلا بعد أن أدمت بين فخذيها، وغابت عن الوعي. وعلى صوت استغاثتها، استفاقت غالية باحثةً عنها بهلع.

- أين حسناء؟

أجابها عامر، وهو يقاوم النعاس:

- تحلب البقرة.

- أخرجك الله من حياتنا يا وجه الشر. زوجتك لا تعرف التعامل مع البقرة.

فتحت الحضيرة، فوجدت حسناء مغمي عليها، ودماؤها تغرق الأرض. حملتها، وبعد استدعاء جارتهم، أخبرتهم أنها كانت حُبلى. وبهذا أسقطت جنينها الثاني، وهذا سيؤثر عليها مستقبلًا، وعليها الالتزام بالراحة والبقاء في الفراش. لم تبكِ حسناء هذه المرة وطلبت عدم نقل الخبر لوالدتها. اكتفت بالصمت، وأخفت حريقها داخلها. لم تكن تعلم أن صمتها يكبر فيظهر على جسدها وفي هالات حول عينيها. جعلت مما حدث نقطة تحول في حياتها؛ نزعت من رأسها أنها ابنة الثامنة، أحرقت ربيع حياتها بيديها، وأدخلت

الخريف لقلبها، واختفت نظرتها الطفولية القاصرة تجاه الحياة. تملكها اليأس، وأحاطها بأسواره، وتمنت ألا تنجب لزوج لا يصلح أن يكون أبًا مثل عامر.

❊ ❊ ❊

٤

عاد عامر من الحديدة على غير عادته، وقبل انقضاء الثلاثة الأشهر. زف إلى الرجال، وعامة الناس، خبراً أنصتوا إليه بآذان صاغية:

- الرئيس عبد الرحمن الإرياني قدم استقالته، لكن مجلس الشورى رفض استقالته.

انهالت عليه أسئلة الناس:

- لماذا رُفضت استقالته؟ من سيحكم بعده؟

أجابهم بصدرٍ منفوخ وأنف مرفوعة:

- الأوضاع لا تزال متردية، منذ خروج أسرة حميد الدين من اليمن، والآن القبائل تسعى للحكم والسيطرة على البرلمان، والجيش يريد الحكم. ولهذا قدَّم الرئيس استقالته، فالذنب يأكله، لكن مجلس الشورى رفض الاستقالة لأنه يرى فيه صلاحًا للبلاد.

كانوا يصغون إليه كما لو أن نقل أخبار الملوك والحُكام أمر جلل، لا يقدر عليه إلا الخاصة. في غضون ساعات، انتشر الخبر في محافظة حجة، وتملك الزهو قلب عامر، كونه أنقذهم من براثن الجهل. لا يعرفون السبب الخفي وراء عودته من الحديدة غير نقل الأخبار. وكما لم يحذر عامر من فعلته مع أخيه، لم يحذر كذلك عبد الواحد. اجتمع لديهما الآن عِرق العِناد. عاد إلى

اليمن فجأة، ودون إخبار أحد، كي لا يفر عامر منه مثل كل مرةٍ. وصل فجرًا، وبعد أن صلى في المسجد، ذهب لمنزله وهو يتحرق شوقًا لتلقين عامر درس حياته، رغم أن ضميره يؤنبه وهو يتذكر آخر وصايا والده:

"بُني يا عبد الواحد، أنت الأصغر لكنك الأكبر عقلًا وسلوكًا ومسؤولية. كنّ أبًا لأخيك ولا تشعره باليُتم بعد موتي. احتضن أختك، وصُنّ أمك من أي شر."

لم يلتحق عبد الواحد بالمدرسة، وكان أول ما فكر فيه هو العمل. عمل في كثير من المهن، لأجل أمه وأخته وأخيه. أما عامر، فمنذ صِغره يفعل ما يحلو له، لإغاظة عبد الواحد، ولا يُعرف إلى الآن سبب مقته له.

طرقة... طرقتين... ثلاث طرقات، لتُجيب والدته من خلف الباب: "لا أحد يطرق الباب هكذا غير عبد الواحد... الله يفتح عليك يا ولدي ويسهل طريقك."

فتحت الباب لتجد خيالًا أسود. رفعت ضوء المصباح إلى وجهه، فانكب عليها، يلثمها من رأسها حتى أخمص قدميها. ومن هول مفاجئتها بكت وهي تقبل رأسه، وعلى صوتيهما استيقظ عامر وحسناء. وقف عامر مذهولًا وكأن أحدًا صبّ على رأسه ماءً باردًا. تجمد في مكانه منتظرًا ما يخبئه له القدر. أما حسناء، فبعد أن كبر عقلها، تخيلت هذه اللحظة كثيرًا. تخيلت لحظة قتل عبد الواحد لعامر وتحررها من وكر الثعلب، فارتسمت على محياها ابتسامة خفية. قالت وهي تتقدم للسلام:

- حياك الله يا عبد الواحد.

سلم عليها بيده، وقال بنبرة مختلطة بلهجة البلد الذي جاء منه:

- الله يحييكِ يا حسناء.

نظر إلى عامر الذي تحول إلى أرنب أو فأر. اقترب منه عبد الواحد بسرعة، ولكمهُ في خده الأيمن، ولم يستوعب عامر ما يجري إلا وقد تلقى لكمة ثانية على خده الأيسر. كان ذلك مجرد إحماء، لتتوالى بعدها اللكمات والركلات، ولم يدافع عنهُ أحد، لا غالية ولا حسناء. كان قلباهما يرقصان ابتهاجًا وتبتسمان بتشفٍ خفي. لم يتركه عبد الواحد إلا حين خارت قواه، وأخذ صدره يعلو ويهبط من شدة الإنهاك. هنا حان دور لسانه. عامر ملقى على الأرض، والدم يسيل من أنفه، وعبد الواحد واقف ينظر إليه باشمئزاز قائلًا:

- ماذا فعلت لك لتعاقبني هكذا؟ أسكنتك في بيتي كي لا تتشرد في الشوارع، وأنت ضابط! أدخلتك الجيش، وأوصلتك لما أنت فيه بمالي! ضحيت بنفسي وبعمري من أجلك! وافقت على زواجك مقابل أختي، فقط كي نصون بنات الناس منك! وفي المقابل تعاملني بهذه الطريقة؟ تريد إفلاس أخيك؟ هذا جزاءي يا كلب؟ يا أخي حرام عليك... أنت إنسان أم حيوان بلا إحساس؟ أنت عار علينا، وعلى زوجتك، وعلى الناس، وعلى الرجال، لو أن الرجال مثلك. أنت تستحق الحرق حيًّا.

تركه، بعد أن بصق عليه وركله للمرة الأخيرة، ثم ذهب إلى غرفته. أشارت غالية إلى حسناء أن تساعد عامر. أشعلت حسناء بداخلها المكر والدهاء الذي تعلمته مؤخرًا من النساء. ساعدته على النهوض. وبعد أن تمدد على الفراش أحضرت الكمادات ووضعت الوسائد وراء ظهره ثم قبلت يده قائلة:

- لم أتوقع أن عبد الواحد مجرم إلى هذا الحد! الله يكسر يده! كيف يفعل بك هذا، وأنت أخوه الكبير؟ لكن شفاك الله... لن أعمل أي شيء بعد اليوم، سأجلس إلى جوارك حتى تتحسن! وفي قلبها كانت تقول: "يا الله سامحني على كذبي، ولا تستجب دعائي".

دفعها بقوة، ورماها بقنينة الماء، ثم بالكمادات، قائلًا:

- يا كاذبة، يا منافقة! رأيتك وأنتِ تبتسمين بتشفٍ! لو كنتِ خائفة عليّ بحق لكنتِ دافعتِ عني وترجيتِ عبد الواحد ليتوقف عن ضربي! لكن حالما أتحسن سأكسر لكِ ظهركِ.

اكتفت بالصمت، وفي سرها قالت: "هذا أقل ما تستحقه... وما كنت أتمناه هو موتك، لا أقل من هذا."

هيَ لا تزال تخشى من عامر، وبسبب خوفها وترددها يكتشف كذبها دائمًا. لكنها الآن سعيدة، سعيدة أكثر من يوم زِفافها. كيف لا! واليوم ضُرب عامر وسال دمه. تركت له الغرفة وذهبت وهي ممتلئة بالنشاط. خبزت العيش وطهت العدس وأعدت القهوة ووضعت التمر بجانب المائدة. وعلى مائدة

واحدة تناولوا وجبة الإفطار: غالية، حسناء، عبد الواحد. بعد الإفطار قال عبد الواحد:

- أرغب في الزواج.

أجابته غالية:

- حقك يا ابني، لكن أليس حرامًا علينا ظلم بنات الناس؟

- حرام، لكن هذه المرة أريد زوجة قوية... قلبها قاسٍ مثل عامر، أريد امرأة بثياب رجل.

نظرت غالية لحسناء ونطقتا في الوقت نفسه:

- "خاتمة".

ابتسم عبد الواحد قائلًا:

- من اسمها ستكون الخاتمة فعلًا. اخطباها لي اليوم.

وقع الخبر كان صادمًا للناس، فهم يعرفون عبد الواحد ويعرفون خاتمة. لا يتشابهان في شيء. عبد الواحد طيب القلب وحنون وكريم، وخاتمة على عكسه تمامًا. هي رجل بثياب امرأة وسيُظلم عبد الواحد معها. تلقت غالية أحاديث النساء أشكالًا وألوانًا: بين من تستغرب زواجه من خاتمة، ومن تقول بأنه ظلم زوجتيه السابقتين والآن يقتص منه الله بزواجه من خاتمة، ومن تقترح أن يأخذها معه إلى السعودية، فتشمر هناك عن ذراعيها وتعمل معه.

حديث النساء ملأ رأس غالية بالشك. وبعد أن كانت واثقة من اختيارها،

أصبحت مترددة وخائفة على ابنها وعلى ماله من خاتمة، التي لا تترك حقها عند أحد، رجلًا كان أم امرأة. تخرج خاتمة ليلًا بمفردها ولا يتجرأ رجل على الاقتراب منها. مظهرها وخطواتها في الشارع وكأنها ملازم أول. يحترمونها أمامها خوفًا منها، ويمقتونها من وراء ظهرها... خوفًا منها كذلك. فرض عليها المجتمع أن تكون بهذه الشخصية؛ لتعيش وسط الأسود والثعالب البشرية ورأسها مرفوع. ولو لزم الأمر، لضربت أي رجل إن اعتدى عليها أو قلل من احترامه لها. كان الرجال يخافونها ويتجنبوها قبل النساء. ورغم ذلك صمم عبد الواحد على اختياره لخاتمة ولم يأبه لحديث الناس. أما عامر فكانت الحيرة تأكل قلبه من اختيار عبد الواحد، لكنه لم يتجرأ على سؤال أحد سوى حسناء التي ردت عليه بأنها لا تدري. كان قد نسي ضرب عبد الواحد له، فبدأ يفكر في الطريقة الأنسب لدخول عقل خاتمة، وفي الإغراءات التي سيقدمها لها.

❃ ❃ ❃

٥

زُفَّت خاتمة يوم الخميس، في ليلةٍ ممطرةٍ طغي فيها صوت الرعد على زغاريد "المزينة"، وأضاءت البروق طريق المحتفلين أكثر مما فعلت القناديل الصفراء في أيديهم. الرجال يرفعون أطراف قمصانهم البيضاء الملطخة بالطين، فتقع منهم حين يطلقون رصاصات بنادقهم نحو السماء. النساء منعن أطفالهن من الخروج كي لا يبللهم المطر فيصيبهم البرد كما يصيب الآن قلب غالية التي تشاءمت من هذه الزفة في هذا الوقت. أتى المطر ليبلل الأفكار المزروعة في رأسها فزادها اضطرابًا وخوفًا من الوصول لكلام النساء. وحسناء يُعاد في مخيلتها سيناريو يوم زفافها على عامر، وها هي ترى أمامها خاتمة تتأبط ذراع خالها، فيسلمها ليد غالية، ثم يأخذ شاله من فوق رأسها ويخرج.

اجتمعت النساء في الغرفة نفسها التي جلست فيها حسناء وعلى الكرسي ذاته. دخلت خاتمة وبعدها عبد الواحد وهو بكامل زينته ورونقه. تركت النساء العنان لحناجرهن بالزغردة وتركت حسناء العنان لدموعها بالهطول دون أن تعرف سببًا لهذه المشاعر المتضاربة. طردت كل ما في رأسها وثبتت عينيها على عبد الواحد وخاتمة. تقدم نحوها ووضع يده على رأسها وبعدها رفع طرحتها وأمسكها من يدها لترافقه إلى غرفته.

بعد أن غادرت النساء وخلا المنزل، حل الهدوء، وبدأت غالية وحسناء

بتنظيف المكان من فوضى علب العصير والماء وأعواد القات التي غطت أرضية المنزل. بدأتا من الرواق، حسناء تحمل كيسًا كبيرًا تجمع فيه عُلب الماء والدخان، وغالية من خلفها تكنس الأرض بمكنسة القش وتجمع أوراق القات في نهاية الغرفة ثم تلقي بها في الكيس. بعدها بخرتا المنزل لإزالة رائحة "المداعة". انتهى العمل مع انتهاء طاقتهما. استندت غالية بظهرها للجدار وهي تمسك برأسها متعبة.

نامتا كما لم تناما من قبل. وفي الصباح ظهرت أولى علامات تأثير خاتمة على عبد الواحد. بشَّرهما قائلًا:

- سأشتري لكم تنورًا يعمل بالغاز حتى لا تتعبي يا أمي.

تطلعت إليه غالية بدهشةٍ قائلة: لا تكلِّف نفسك يا ابني، كما أننا لا نعرف كيف نستخدمه.

- لا أغلى منكِ يا أمي. الرجل سيأتي للمنزل ويريكم طريقة الاستخدام.
- تُدخل الرجل علينا يا عبد الواحد.

ابتسم عبد الواحد قائلًا: حفظك الله يا أمي، أنا معه.

- وبكم يكون كل هذا؟
- أسطوانة الغاز بخمسين ريال والتنور بمائة ريال.

أمسكت غالية على رأسها من هول الصدمة ولم يترك لها فرصةً للرد حين

قال: وسندخل لكم كهرباء بمائة وخمسون ريال بدلًا من هذه القناديل الصفراء.

صمتت غالية وقد اختلطت عليها الأمور. خاتمة هي من غيَّر ابنها وأثرت عليه في ليلةٍ واحدةٍ. كانت قد سمعت كثيرًا عن تأثير الزوجات على الأزواج، قالوا إنهن أخطر من السحر على العقل، وسحرهن يلتهم الجسد ويذيبه على الأسِرة ليلًا، لكنها لم تكن تتوقع أن خاتمة تمتلك هذا النوع من سحر النساء! أم تُراها بلاد الغربة من التهمت عقله وبذرت فيه فكرة التحضر كما يسمونها؟ طوال عمرها تستخدم الحطب لعمل الخبز، ومصدر الضوء هي القناديل الصفراء التي تعمل بالجاز.

لم تكن خاتمة مثلما يُقال عنها: شريرة وسيئة الخُلق. كانت امرأة قوية في زمنٍ تُستنكر فيه قوة النساء، فكانت ضريبة قوتها هي ما التصق بها من سمعة سيئة. أصبحت خاتمة تنهض مبكرًا من تلقاء نفسها وتساعد حسناء وعمتها غالية في أعمال المنزل الداخلية والخارجية. لم تُظهر شرًا ولا حقدًا ولا كيدًا من كيد النساء، بل عاملتهما بكل وِدّ. أُدخلت الكهرباء للمنزل، ولأول مرةٍ يكون لون الضوء أبيض. حملقت حسناء يومها في اللمبة العمودية إلى أن شعرت بألم في عينيها. أما تنور الغاز فقد لسعها مرات، ومع كل لسعة كان يسقط منها الخبز ويحترق فتنتشر رائحة الحريق.

ابتسم عبد الواحد يومها قائلًا:

- لا تقلقي، يحصل هذا دائمًا في المرة الأولى.

كان لا يزال لطيفًا وحنونًا ومعطاءً، ولما طال مكوثه سأله عامر:

- هل سترجع إلى السعودية؟

بنظرةٍ ساخطة أجابه: ليس من شأنك.

في وجود عبد الواحد يكون عامر قطًا وديعًا، ولا يُظهر قوته إلا على حسناء التي يسعدها انكساره وضعفه. ومع ذلك فاللحظات الجميلة لا تدوم. بعد أن سافر عبد الواحد برزت أنياب عامر و"عادت حليمة لعادتها القديمة". منعهن من استعمال تنور الغاز، ثم قطع الكهرباء. يستيقظ صباحًا وأول ما يفعله هو أذيتهن وإهانة حسناء وفرد عضلاته عليها أمام خاتمة، ظنًا منه أنه بهذا يثبت رجولته. طال صبره على خاتمة، لكنها كالجبل لا تلين ولا تنحني. ويومًا، في غياب حسناء وغالية، باغتها بأن دخل غرفتها دون أن يطرق الباب. حدقت به بنظرةٍ قويةٍ وقد عرفت نواياه، لم يكن فيها أثر للخوف مثل من سبقنها.

- اسمعي يا بنت الناس، هذا البيت بيتي وأنتِ ستُطلقين كالأخريات، وعبد الواحد لن تدوم له زوجة ما دمتُ على قيد الحياة.
- لماذا تكرهه؟
- لأنه عبد الواحد، ولأن كل الناس يحبونه، الكبير والصغير، وأنا لا أحد يهتم بي. عبد الواحد طول عمره يأكل نصيبه ونصيبي من كل شيء وأنا صابر طوال عمري. لكن لن أخرج من المولد بلا فائدة، هذا البيت لي.

- ما قالوا لك إني خاتمة بنت رجال من ظهر رجال.

- ههههه، الآن سنعرف.

نهضت من جلستها سريعًا وفتحت الدولاب الحديدي وهو لا يعرف ماذا تنوي أن تفعل. أخرجت مسدسًا وصوبته ناحية رأسه.

قابلها بضحكة قطعها صوت رصاصة اخترقت فخذه الأيمن ودوى صراخه عاليًا... بعدها دوت طبول الحرب بين الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. ارتفعت الأسعار، وأصبح القرش الذي كان يساوي أربعة أرغفة برغيفين. عم الخوف وساد القلق من المجهول. وبعد أيام من اندلاع الصراع المسلح على الحدود تدخلت جمهورية مصر العربية وتم التوصل إلى اتفاق القاهرة الذي قضى بتوحيد الشمال والجنوب في دولة واحدة. هدأت الأوضاع مجددًا، وكانت إصابة عامر عذرًا كافيًا للتهرب من الحرب.

❊ ❊ ❊

نقِفُ في طوابيرٍ مُكدسة

تُلقى علينا أيامُنا من الأعلى

فتُسقِطُ أحمالها على ظهورنا مُتباينة

مِنا من يحمل يومه خفيفًا ويعدو به

ومِنا من يحملهُ مُنكسًا ويحبو به

لكننا جميعًا في النهاية نتبادل أماكننا

إياك أن تثق كثيرًا بالحياة

تحرك، اصرخ، ارقص، ابكِ، جُنّ

فلا شيء من هذا الجنون ثابت

ما إن تأمن حتى تهوي مُجددًا

"دُعاء"

❊ ❊ ❊

٦

ظنت حسناء، وهي تراه يتلوى أمامها ويبكي ويصرخ والدماء تملأ الأرض، أنه سيموت، لكن ظنها خاب حين استفاق بعد أسبوع وهو يعرج وقد اتخذ قراره الذي لم يخطر على بالها.

- سننتقل للعيش في منزل القرية ونترك منزل المدينة لعبد الواحد وزوجته.

لم تتوقع أيضًا قرار غالية حين قالت:

- سأنتقل للعيش معكم. لن أتركَكِ لعامر.
- ستكونين سعيدة في بيت عبد الواحد.
- سعادتي معكِ.

أتت خاتمة لتقلب الموازين وتغير الأقدار. أراد عامر تملُّك المنزل بمضايقة زوجات عبد الواحد ولم يخطر على باله أنه سيُطرد منه يومًا على يد امرأة. لم يتب عامر، لكن الخوف أصاب قلبه ودق منابع الجُبن في نفسه فقرر الابتعاد وترك المدينة وذكرياته فيها مع أصدقائه.

استمرت وتيرة الحياة، بين مكوث عامر ثلاثة أشهر في الحديدة وثلاثة أشهر أخرى يقضيها في بيت القرية، ينكد فيها على أمه وزجته. كانت غالية تصبر وتحتسب من أجل حسناء، وتتحمل جبروت عامر وقسوته التي تزداد كلما

انتفخ كرشه. وقد زاد غروره حين شعر أهالي القرية أنه ينتمي إلى الحرس الجمهوري. أخبرهم أن الرئيس الإرياني قدَّم استقالته للمرة الثانية، بعد أن نقض الشمال وثيقة القاهرة، شكًا في أمانة الحزب الاشتراكي في الجنوب، لكن مجلس الشورى رفضها للمرة الثانية. يقولون: لا يوجد أكفأ منه في الوقت الحالي لضبط أمور البلاد، رغم أنه لم يتمكن من ضبط القبائل لتتعاون مع النظام البرلماني. يسأله أهل القرية عن الحديدة وشكلها ومذاق البحر: أهو مالح كما يقال؟ وهو يجيبهم، حتى إن لم يكن يعرف، المهم أن يُجيب.

في ١٣ يونيو عام ١٩٧٤، وبعد تفاقم الأوضاع في البلاد وتغوّل مشايخ القبائل، قدّم الرئيس عبد الرحمن الإرياني استقالته رسميًا، تحت ضغط غير معلن من قيادات الجيش. وباستقالته أصبح أول رئيس عربي يُغادر الحكم دون انقلاب دموي. عقب ذلك، اتفقت الشخصيات اليمنية البارزة، بدعم من السلطات السعودية، على اختيار المقدم "إبراهيم الحمدي" رئيسًا للجمهورية العربية اليمنية في الشمال. بدأ عامر يسرد للناس ما فعله الحمدي للوصول إلى الحكم، يشرح ويحلل، رغم أنه لم يره يومًا بعينه.

كانت حسناء قد أنجبت طه، وكانت تظن أن طفلها سيخفف عنها ما تمر به وسيكون طوق نجاتها من السواد الذي تعيشه. كانت ترى فيه بصيص أمل قد يبدل والده الضابط "عامر". كل ما كانت تطلبه من عامر هو أن يحتضن طه، أن يُشعره بالحنان... لكنه لم يحصل على شيء.

لم تتعلم حسناء القراءة والكتابة، لكنها، كسائر النساء، كانت كوكبًا من

المشاعر. ودت لو أنها تزوجت رجلًا يملأ قلبها قبل عينيها، يحتضنها ويحميها من سواد العالم وقسوته. لم تعرف يومًا معنى الاحتواء، رغم ذلك احتوت أطفالها الخمسة؛ كانت لهم أُمًا وأبًا، معلمةً ومرشدة.

مع مرور الأيام اختفى بصيص الأمل الذي كانت ترجوه من عامر. عاد من عمله بعد شهر من ولادة "طه"، ليأخذ منها ما يسمى بـ "حقه الشرعي" دون أن يراعي تعبها الجسدي والنفسي. لم يطلب حتى رؤية طه ولا ذكر اسمه. هنا تحطمت آخر آمالها. لم يغير نفسه من أجله ولا من أجلها ولا من أجل الناس ولا من أجل أولاده الذين يرونه قدوة. كل ما يهمه هو الثرثرة ونفخ مكانته بين الناس. وفي أوقات الحروب والصراعات كان يتحجج لقادته بمرض أطفاله، ليعود إلى المنزل ليسمع الأخبار من الراديو. يجبر حسناء على الجلوس معه والاستماع لحديثه، وبين الفينة والأخرى ينعتها بالجاهلة.

ذات يوم والقات ملء فمه أتى صوت المذيع من الراديو:

"مستمعينا الكِرام، ننقل لكم نبأ مقتل الرئيس "إبراهيم الحمدي" رحمه الله. الرئيس الذي فاضت في عهده ميزانية الدولة وساد في زمنه الأمن والرخاء. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته."

صرخ عامر وتناثر القات من فمه قائلًا:

- رحمة الله عليك يا رئيس الرؤساء، كنت طيبًا وكريمًا. هل تعرفين من قتله يا حسناء؟

- لا.

- جاهلة كعادتكِ. الحمدي اختلف مع السعودية ومع من أوصله للحكم، لم يسر على هواهم فقتلوه. والسعودية لم يرق لها التحسن الذي أحدثه في البلاد خلال أربع سنوات فقط من حكمه. فكيف إذا استمر حكمه أكثر؟

لم يكن عامر يفقه شيئًا في السياسة، ولا يعرف شيئًا عن الرئيس الحمدي ولا عن الرئيس الإرياني. كان يردد ما يتداوله الناس من إشاعات. كان حيوانًا جنسيًا، أنانيًا، لا يهتم سوى بنفسه وبِما يقوله الناس عنه. لم يكن في حساباته لا أُمه ولا زوجته ولا أطفاله. لم يكن يهتم سوى بنفسه. هوَ ومن بعده الطوفان.

كانت روح حسناء منهكة، لكنها ظلت تتظاهر بالقوة من أجل أطفالها الخمسة: طه، علي، هناء، رغد، ووليد. لم تترك عملًا إلا وقامت به، ولا حرفةٍ إلا وتعلمتها. وقد ساعدتها طبيعة القرية على حرية الحركة. تستفيق بعد صلاة الفجر، وعلى ضوء الفانوس تمضي لجلب الماء على ظهر الحمار من بركة تبعد كيلومترات عن منزلها. ثم تعود لتبدأ العمل في مزرعة القات. يأتي طه بالإفطار، المكون غالبًا من الخبز والشاي. العمل والكد يجعلان الوقت يمر سريعًا. لا تستفيق حسناء من غيبوبة الأرض إلا بعد أن تتعامد الشمس على رأسها فتشعرها الحرارة المرتفعة بالصداع وقد أغرق العرق ملابسها.

من رحمة الله بها أن أرسل لها "غالية". كانت تساعدها في أعمال البيت: تنظف الأولاد، وتذهب بهم إلى المدرسة وتطبخ لهم وجبة الغداء،

وتعلمهم، كما كانت تعلم حسناء من قبلهم ما تحفظه من القرآن. تبدأ بالفاتحة ثم المعوذتين وسيد الاستغفار. والخمسة يحفظون ما تردده ويتهامسون حين ينسى أحدهم آيةً أو ذِكرًا، ليتجنب لسعة خيزرانها التي يبلغ طولها مترين. وبسبب ضعف بصرها وسمعها تراهم يرفعون أصواتهم لتتمكن من سماعهم. أكل العُمر عِظامها واحدودب ظهرها ورقبتها، لكنها لا تزال محافظة على مرحها وعلى ذاكرتها القوية. تحكي لهم قصص أمهم حسناء، عن بداية زواجها بعامر، وقصص الرؤساء السابقين. وحين يشعرون بالحزن، تسرد عليهم النكات الشعبية، فيصغون إليها ويغرقون في الضحك.

كانت سعادتهم تبدأ بسفر عامر؛ يعلو صراخهم فرحًا، ويملؤون البيت بحياة تدب في أجسادهم الطفولية، وبابتسامات تضيف إلى أعمارهم حياة أخرى. يجرون ويمرحون صعودًا وهبوطًا على الدرج. وبعودة عامر ينتهي كل هذا. في وجوده لا يتحدثون إلا همسًا، يمشون على أطراف أصابعهم، وكأنهم يخشون من انكسار بيض على الأرض. ورغم حرصهم هذا يبرحهم ضربًا وإهانات بسبب ودون سبب. كانوا يقابلون عنفه بالصمت والعجز: العجز عن إيقاف جبروته، العجز من تغيير قدرهم الموشوم على جباههم، العجز حتى من الحُلم أن يستيقظوا وقد اختفى عامر. العجز تمكن من قلوبهم فصور لهم الدعاء بموت عامر مُستحيلًا، العجز والخوف هو ما كان يوقفهم.

جُلّ ما كان يتمناه طه، علي، هناء، رغد، ووليد هو ألا يستيقظوا على صوت أمهم وهي تبكي وتستغيث بهم فيعجزون عن الاقتراب أو الحراك من

مكانهم، ويدسون أصابعهم في آذانهم خوفًا من الصوت الذي يكسر قلوبهم. كانوا يتقوقعون تحت بطانياتهم، وحين يختفي صوت حسناء فذلك يعني أنها فقدت الوعي. وقتها تنسل غالية من مخبئها وهي تتكئ على عكازها ونظارتها تكاد تلتصق برموشها. ترش الماء على وجه حسناء وتضع العطر في أنفها ثم تضع لها الكمادات لتخفف من كدمات وجهها فلا تظهر أمام النساء. أما جسدها فلا بأس، لن يراه أحد. كانوا يعانون من أشد أنواع الضغوط النفسية، لكن ضغط عامر عليهم كان له مذاق العلقم؛ لا يُنسى حتى بعد ألف سنة. عامر الذي لم يكن يأتي في أحلامهم إلا على هيئة كوابيس.

"صباح الخير..."

الأجدر أن تُستبدل تحية الصباح هذه لتكون: "صباح الكد والشقاء"، فهما التوأمان اللذان خرجا مع حسناء من رحم واحد. صار هذا جليًا من تجعد يديها وذبول عينيها وآلام ظهرها وركبتيها وانحناء رقبتها من فرط جلوسها على ماكينة الخياطة لتعيل أولادها الخمسة. كافحت حسناء كما لم تكافح امرأة من قبل، وكان لها من صبر أيوب نصيبٌ وافر. ربت الأولاد الخمسة وأدخلتهم المدرسة، اشترت لهم الأحذية الجلدية، عوضًا عن المطاطية، وكانت تكسوهم بملابس جديدة في كل عيد. كانت تظن بهذا أنها احتوتهم بالشكل الكامل وأنها قامت بدور الأب والأم ولم يتبقَ عليها شيء لفعله. لم تدرك وقتها أن الأولاد يكبرون ويكبر معهم كل شيء؛ الهم والحزن والشقاء والسعادة والتعاسة، ومهما فعلت لتعوضهم عن أبيهم، الحاضر بعنفه

والغائب بحبه وحنانه ورعايته، تظل هناك حاجة لأبٍ يكون قدوة ومثالًا أعلى لهم أمام الناس. لم تعرف أنهم يريدون العطاء والحنان، وبجانبه يحتاجون التوجيه والإرشاد. لم تكن تعرف ولم يكن باستطاعتها أن تقوم بالدورين معًا: الأم والأب، بالكفاءة التي كانت ستتحقق لو أن عامر يقوم بدوره بجانبها. عامر الذي لا يرى نفسه مُخطئًا أبدًا. وحدها حسناء هي من تخطئ، في نظره، ومن تكذب وتخدع. يشتكيها لكل أهل القرية فتغدو سمعتها على كل لسان. يقولون: هي من تظلم عامرًا فيهرب منها إلى الحديدة. يدَّعي أنه يضرب الأولاد لأنها تحرضهم ضده ولا يطيعونه. كما يدعي أنه يرسل لها راتبه شهريًا، لكنها تكذب لتكسب تعاطف الناس. ينقل الرجال رواية عامر لزوجاتهم وهن بدورهن يخبرن حسناء بأنها لن تجد زوجًا مثل عامر. النساء لا يقصرن في الاصطياد في الماء العكر، يأتين من باب النُصح والإرشاد: "اصبري فكل النساء يصبرن." فتصبر كي لا تطلق كما طلقت أمها. تصبر كي لا تعود إلى تحت قدمي زوجة أبيها. تصبر بحجة أنه لا يوجد بيت لا يخلو من المشاكل. تصبر لأنها اقتنعت بأنها هي المخطئة وأنها لم تحسن التعامل مع عامر وأن عليها أن تحمد الله لأنها زوجة ضابط.

"الفضول، الفضول قتل الغشمي"

بعد وفاة الرئيس الحمدي خلفه "أحمد حسين الغشمي". لم يكن على وفاق مع السُّلطة في عدن، خاصة بعد تشكيله "مجلس الشعب التأسيسي" وتجدد العمل المُسلح الذي كانت تقوم به الجبهة الوطنية ذات التوجه الماركسي،

بعد انضمام بعض الشخصيات الناصرية لمجلس قيادتها. تقول الرواية الشائعة إن السُلطة في عدن أرسلت حقيبة دبلوماسية مفخخة إلى الرئيس الغشمي. فتحها فانفجرت القنبلة لينتهي حكمه الذي استمر تسعة أشهر. انتشرت بعدها مقولة "الفضول قتل الغشمي"، وكانت تُقال لكل من لا يسمع التحذير، حتى أن العبارة كان يرددها الأطفال دون علمهم بمعنى الفضول ولا من هو الغشمي.

❊ ❊ ❊

٧

عاندت العالم وعاندت صحتها من أجل أبنائها، وبالأخص من أجل "طه" الذي ربتهُ وعلمته وهي لا تعرف أن الجينات تنتقل بالوراثة وأن العرق دساس أحيانًا، وأن العنف ينجب عنفًا مضادًا في دائرة لا تعرف أين تنتهي. كبر طه لينتزع منها ربيعًا وراء آخر ويأخذ من والده كل صفاته، ويزيدها بؤسًا على بؤسها وشقاءً على شقائها ويطمرها أكثر في وحل سواد حياتها. إن لم تأتِ مشاكله من إخوته في المنزل فمن زملائه في المدرسة أو من جيرانهم. الجميع يشتكون من طه وينفرون منهُ. لم يُجدِ معه ضرب ولا توبيخ، وكأن جسده بلا روح أو أنه جسد مصنوع من المطاط! لم يكن يهدأ ويترك الناس في حالهم إلا حين يأتي عامر. ذات مرةً اشتكاه أحد الجيران إلى والده:

- ابنك يضرب الأطفال، ولا يحترم من هم أكبر منه.

وبعد أن رأوا كيف ضربهُ عامر يومها، لم يعد أحد يشتكي لهُ منه مهما فعل طه. لم يكن ما فعله مع طه يومها ضربًا كالذي نعرفه، رفعه عاليًا ثم رماه أرضًا ثم للهواء وللجدار وهكذا إلى أن تخور قواه فيستريح ويعود لضربه حتى بال طه في سرواله مرات عدة.

يذهب طه بعد انتهاء وقت المدرسة عند صديقه بِحُجة المذاكرة لكن المذاكرة تتحول إلى مشروع تناول القات وتدخين السجائر. أول مرةٍ جرب

فيها تناول "الشمة" داخ وأخذ يهذي بِمَ لا يجب عليه قوله واستفرغ إلى أن خلا جوفه، وفي المرة الثانية داخ لكنه لم يهذِ وشعر بأمعائه تتلوى لكنه لم يتقيأ وفي الثالثة لم يشعر بشيء واستمر عليها، بينما كانت حسناء تفتخر أمام النساء أن ابنها يذاكر حتى منتصف الليل.

حين عاد من المدرسة يومًا كانت هناء ورغد تلعبان مع الفتيات وقد نسيتا ارتداء الطرحة على رأسيهما. قطع فرعًا لينًا من شجرة قريبة وأمام الفتيات ضربهما بقسوة وهما تترجيانه بدموعهما التي لم تبلغ التاسعة بعد. ظلت علامة العصا على جسديهما أسبوعًا بأكمله، ومن بعد تلك الحادثة لم تطآ الشارع إلا بطرحةٍ وبرفقة حسناء.

لم يكن طه يحب ما تطهوه جدته غالية وأمه حسناء، وكانت غالية تحب تدليله وإرضاءه بكل الطرق، لكنه لم يكن يرضى عن شيء. وكلما لبوا رغباته زاد حنقه وتعنته، إلى أن طفح الكيل بحسناء فأخذت "حرضة الحُلبة" وصبتها على رأسه ومرغت بها رأسه وصدره إلى أخمص قدميه. من بعدها لم يبدِ رأيه في أي طعامٍ قط. يأكل ما يُقدم لهُ بصمتٍ وخضوعٍ، ولم يعد يتجرأ على قلب مائدة الأكل مثلما يفعل عامر.

أرسلته يومًا إلى منزل الشيخ ليُحضر لها "الطماطم" لتحضير الغداء. وقتها كان موعد إعادة مسلسل "ليالي الحلمية"، وكان الشيخ الوحيد في القرية من يملك تلفازًا، وكان كل من يُحب المسلسل يحضر إلى "ديوانه" للمشاهدة، ومنهم طه الذي ذهب ولم يعدْ. أرسلت في طلبه عليًا ولم يعدْ، أرسلت هناء

ورغدًا فلم تعودا، أرسلت وليدًا فاختفى كالباقين. ولما اشتد بها الجوع أرسلت ولدًا ليبلغهم أن جدتهم غالية اشترت لهم بطيخًا.

لم تمضِ خمس دقائق إلا وحضروا. أدخلتهم الغرفة وأغلقت خلفها وضربتهم بالسوط إلى أن هدأت نفسها، بينما غالية مستندة على عصاتها وتصرخ من خلف الباب بأن يكسر الله يديها ويشل قدميها لأنها تعذب أولادها. لم تكن المشكلة في تأخرهم فقط، بل لأنهم نسوا إحضار طماطم للغداء.

تعمل حسناء على ماكينة الخياطة، ولعلم النساء بظروفها المادية يتوافدن إليها وهي تقبل منهن أي شيء. إن لم يكن لديهن الريالات تأخذ الأرز، السكر، الطحين، وأحيانًا يجلبن لها الفواكه والخضروات. كانت تتقن عملها، وبيدها فقط تقيس طول وخصر النساء. في بداية مشوارها كانت تخجل من تشبير أردافهن فاهتدت إلى استخدام خيط عريض تلفه حول الأرداف وتمسكه عند نقطة الإغلاق ثم تضعه وتشبره بيدها. وسنةٌ وراء أخرى صار باستطاعتها قياس النساء من مجرد رؤيتهن، وصارت النساء يرين في هذا دليلًا على بلوغها درجةٍ عاليةٍ من الخبرة والمهارة. بالماكينة السوداء "أبو أسد" وبيديها استطاعت حسناء إطعام أولادها الخمسة. أوصلت "طه" إلى المرحلةِ الثانوية، وهي آخر مرحلةٍ دراسيةٍ في القرية المجاورة لهم إلى أن أتت فكرة استكمال دراسته في المدينة والسكن في بيت عمه "عبد الواحد".

بعد أسبوع من تخرجه من الثانوية العامة سلمت غالية روحها لبارِئها. قبَّلتها

حسناء في رأسها وعينيها ويديها وصولًا لقدميها، ولأول مرة تبكي أمام النساء. طوال سنوات تحملت ضرب وجبروت عامر ولم تبكِ أمام أحد، لكن موت غالية أحدث في قلبها ثقبًا لن يندمل وأزاح معه كل قيمة للكبرياء. بكت يومها كما لم تبك فقدان أمها فاطمة. لم تكن غالية الأم التي ولدتها، كانت الأم التي ربتها وعلمتها ومنحتها خبرتها في الحياة ووقفت بجانبها وتحملتها، ضحت بسعادتها وبمنزل عبد الواحد في المدينة خوفًا عليها من تحمل المسؤولية بمفردها، لم تجادلها غالية يومًا أو تكسر خاطرها أو تحملها ما لا طاقة لها به. بكت يومها وهي تعرف أن دموعها لن تعيد شيئًا. بموت غالية انقشع النور من البيت وانكسر شيء داخل حسناء وزاد ضعف قلبها.

حين أخبرها طه بنواياه لم تجبه إلا بجملةٍ واحدةٍ.

- خُذ الإذن من والدك.

قلَّب الموضوع في رأسه لأيام. تارةً يقول له قلبه: سيوافق لأنه لن يخسر شيئًا، وسيُسعد لأنك ستُغادر المنزل. وتارة يصرخ عقله مجيبًا: لا، سيرفض، لأنه يكرهك ولا يريد لك التوفيق أو أن تكون أفضل منه. يعود قلبه للتدخل صارخًا: لماذا يكرهك أيها الغبي؟ أولًا وأخيرًا أنت ابنه وسيرق لحالك. وبعد أخذٍ و ردٍ، عزم أمره وتسلح بالشجاعة لمفاتحة والده في الأمر.

في يومٍ غائم صعد الدرج على أطراف أصابع قدميه، قلبه يدق وجبينه يتعرق وإخوته وأمه من خلفه يشجعونه على ما سيفعله وكأنه مقدم على معركة.

وقف بعد أخذ نفسٍ عميق وهو يمسك بمقبض الباب الخشبي، وقبل أن يلج إلى وكر الثعلب تمتمت شفتاه بآيات من القرآن. طرق الباب ولأنه يعرف أنه لن يقول له ادخل فتحه بسرعةٍ. جلس قبالته وعيناه في الأرض ولم يقطع صمت الغرفة سوى صوت عامر:

- ماذا تريد؟
- أريد... أ.. أ.

رماه في رأسه بكأس زجاجي تناثرت أشلاءه في كل مكان.

- أريد السفر للمدينة عند عمي عبد الواحد للدراسة في المعهد العالي.

الجرح الذي من العائلة لا يُشفى أبدًا. لم يدرك طه ما حصل وقتها بالضبط غير أن السماء غيَّمت رمادًا أسودَ بعد أن أخرج عامر نصل الجنبية. صراخ والدته وإخوته هو ما جعله يشعر أنه لازال على قيد الحياة، بينما كان ألم خاصرته يتسرب إلى كامل جسده، وعقله يتأرجح بين الوعي واللاوعي، بين الحقيقة والسراب، يشعر بأيدٍ تنتشله وتضعه وتنتشله مرةٍ أخرى، أصوات عالية تصرخ، وصوت محرك سيارة يعمل. يشعر بجسده يقفز مع كل مطب سيارة، بعدها أتت يد لتربط خاصرته بخرقةٍ قطنية مبللة حارقة ليتوقف السائل الساخن الخارج من جسده، ويد أخرى، أو هي اليد نفسها، تغرس حقنة في وريده. عيناه تُغلقان لا إراديًا بينما يحاول هو إراديًا فتحهما ولا تستجيبان. غلبه اللاوعي والسراب، وإراديًا أراد الهرب من الواقع والاستنجاد بالموت ليحضر وينتشله من قعر جحيمه.

٨

استيقظ بعد أربع غُرز وخمس مُغذياتٍ إلا ثُلثًا، وعدد لا يتذكره من الإبر، والخدر لازال يشل جسده فلا يشعر بأطرافه المُثلجة، والمكان الأبيض تفوح منه رائحة مزيج من عطر وأدوية ومعقم أرضيات، مكان يعج بالأصحاء والمرضى، بالأغنياء والفقراء، بالأصحاء الأقوياء والضعفاء، بالمتعلمين والجهلة، بالوسيمين والقبيحين، مكان يحتاجه كل البشر ليشعروا أنهم بشر لا حول لهم ولا قوة ولا سُلطان.

رأس حسناء مستندًا إلى سريره ويدها موضوعةٌ على صدره العاري، وعلى السرير المجاور له طفلٌ يئن ووالده يجلس إلى جواره، وعلى سرير ثالث شاب في مثل عمره، رجله مجبسة بالأبيض، بينما رجُل خمسيني يسقيه الدواء بترج ودلال. خانته دموعه حزنًا على حاله؛ هو الذي أوصله والده لفراش المرض. تمنى لو استطاع محو ذاكرته لينسى، لكنها خائنة، لم تُنسه ما يريد نسيانه. حرك يده ليخفي دموعه فشعرت به حسناء، لتنهض بلهفةٍ وتقبل رأسه، وعينيه، وأنفه، وخديه، ويديه، ودموعها هي الأخرى تبلل شاربه الذي بدأ لتوه يُزهر وكأنما يُسقى من مزيج دموعهما معًا.

- الله يكسر يده ويحرق قلبه ويشل قدميه ويريحنا منه ومن شره.

أتى عمه الذي ذهب لإحضار الطبيب وانفرجت أسارير وجهه حين رأى طه مستيقظًا. قبل رأسه ويديه.

- الحمد لله على سلامتك يا بطل، لا تبتئس من والدك، منزلي هو منزلك ومفتوح لك في أي وقت.

نزع الطبيب الغطاء مِن فوق طه ثم الرباط الأبيض الذي يلف خاصرته. كانت الطعنة جواب أبيه على طلب دراسته والبقاء في منزل أخيه. طعنة ستظل وشمًا يذكره بأبيه طوال حياته.

تأوه حين صبَّ الطبيبُ المعقمَ على الجرح فقاطع تأوهه عبد الواحد ممازحًا:

- هيا تحمَّل، أنت رجل. فقط أراد والدك أن يسمك بوشم ليسهل عليه العثور عليك في المعهد إن اختفيت، سيصرخ قائلًا: ابني في خاصرته أربع غُرز ابحثوا عنه.

ضحك طه رغم ألم قلبه وجسده. ضحك لأن الحزن والدموع لن يُعيدا شيئًا، ولأن كل ما يملكه في اللحظة الراهنة هو الضحك. ضحك وكل جزءٍ فيه يبكي.

بعد المعمعة التي حدثت، وبسبب تدخل عبد الواحد والناس، وسماع القاصي والداني بالخبر، وافق عامر أخيرًا على دخول طه المعهد العالي للمعلمين. ومع أن ذلك أرهق حسناء وزادها حِملًا، لكنها صبرت واحتسبت من أجل طه. كان يمكث أسبوعين عند عمه ويعود للقرية ليوم واحد، يأخذ من حسناء مصروف أسبوعين، ينفقه على القات وتوابعه، بينما تكتفي أمه وإخوته بطبق وحيد من العدس الأسود في الوجبات الثلاث. لم يشعر يومًا أن

أمه تصرف عليه من لحم كتفيها، وعلى حساب فقرات ظهرها ونظر عينيها، ليس لأنه لا يعرف، بل لأنه متبلد المشاعر كأبيه. كان يسهر الليل برفقة أصدقائه، يتعاطون القات حتى وقت متأخر من المساء، وصباحًا يذهب للمعهد إن طاوعه مزاجه.

كان أولاد عمه تحت جناح والدهم؛ يرافقهم إلى المدرسة، ويجمعهم حوله عصرًا للمذاكرة. حين أنجب عبد الواحد ولدًا بعد آخر قرر ترك السعودية والعودة لتربية الأولاد. لم يحرم طه من أي شيء يطلبه منه كي لا يشعر أنه يكرهه أو يضيق عليه الخناق، لكن هذه المعاملة الطيبة أفسدت طه أكثر، فتسرب من المعهد وأهمل دراسته، بينما كانت حسناء في القرية تعمل ليل نهار من أجله لترفع به رأسها أمام الناس، وأمام الأعداء قبل الأصدقاء.

كلما كبر الأولاد كبُر الليل داخلهم وانطفأت الشموع التي أوقدتها لهم حسناء على حساب روحها، كلما أشعلت بقعةً نور يركض الأولاد بأحلام مُنكسرةٍ وآمال محطمةٍ ونفوسٍ جبانة ليُطفئوا ذلك النور.

لم يكن المستقبل أمامهم مجهولًا، ولم يكن البلد آنذاك لعينًا، قياسًا إلى ما سيأتي، لكن حربهم الأولى والأخيرة كانت مع عامر الذي يقف أمامهم مترصدًا أية محاولة للمضي قُدمًا بدافع من طبعه اللئيم ومزاجه العكر وتأثير القات. كان لهم عدوًا أكثر من أب معين، وكأنه أحضرهم للدنيا ليتلذذ برؤيتها وهي تدوس على أرواحهم وتمرغ أنوفهم بالتراب وترميهم يمنةً ويسرة. لم يهتم لهمهم أو يسهر في مرضهم، أو يبارك لهم على أي تقدم أو

نجاح يحرزونه في غفلة من قبضته. كان بعيدًا، نائيًا. بأنفسهم المكسورة لم يستطيعوا نفض الليل ولا ترك النور يسري بسلام، وخرجوا في نهاية الأمر بأرواحٍ تتأرجح بين قوتين ورثوا إحداها من أبيهم والأخرى من أمهم: أرواح متعبة وقوية، فرحة ومكتئبة، منعزلة من الحياة ومقبلة عليها. ورغم كل هذا، وبعد ثلاث سنوات من الدراسة أثمر الله زرع حسناء بحصول طه أخيرًا على الدرجة الوظيفية وعُيِّن "مُدرسًا لمادة القرآن الكريم". نال شهادته واستلم وظيفته براتب شهري يبلغ أربعة آلاف ريال، كان عامر يأخذه منه قائلًا:

- الولد وما يملك لأبيه.

شهر يجر أخاه وعامر يأكل راتبه وراتب طه. لم يكتفِ بهذا، بل باع الأراضي التي منحه إياها الرئيس "علي عبدالله صالح" في الحديدة. باعها قطعة وراء أخرى وتصرف في المال دون أن يُفكر في أبنائه وتأمين مستقبلهم. عند هذا الحد طفح كيل حسناء فلجأت إلى آخر مكان تمنت ألا تعود إليه يومًا. أخذت أولادها الخمسة وذهبت إلى بيت والدها لتعيش مع إخوتها من "صفية". مكثت عندهم شهرًا وشهرين وثلاثة. بعدها قاموا بجر عامر من الحديدة وألزموه بأن يدخر راتبه لزواج طه وأن يخصص راتب طه لنفقات المنزل.

لا يُؤكل العِنب إلا حبةً حبة. ولابد من صعود كل الدرجات لبلوغ القمة. لأول مرةٍ في حياتها تتذوق حسناء دموع الفرح وهي ترى "علي" ببدلة الجندي. شاهده عامر وهو ينحني ليقبِّل رأس أمه وركبتيها فركله في ظهره قائلًا:

- هل نسيت والدك؟ أنا من توسطت لك عند القادة والضُباط لكي يوظفوك، هل تحسب أن الدراسة التي درستها هي من أوصلتك للشرطة؟ أنت وما تملك لي لأنني السبب فيه. اخرج، اخرج من منزلي لا أريد رؤيتك يا ابن أمك.

و"كلام الليل يمحوه النهار"، و"إنما الأعمال بالنيات"... سنتان وطه يصرف على المنزل، وهو يظن أن والده يدخر له مصاريف زواجه، ليكتشف عند مفاتحته بالموضوع أنه لم يوفر شيئًا. صدمه حين قال:

- هل قلت إني سأوفر لك شيئًا؟ ذكرني متى كان هذا! فذاكرتي تخونني.

اشتكي وقتها طه لشيخ القرية ليُعيد الشيخ الحُكم أمام جمع كبير من الرجال. واستمر انتظار طه سنتين أخريين، وبعد مرور السنتين و"كأنك يا أبو زيد ما غزيت". من جديد يغدر بهم عامر بأعذار واهية. كتم طه غيظه وغضبه من والده، وتجمعت دموع عينيه في قلبه. تصبَّر وربتت حسناء على خاطره قائلة:

- الحمد لله يا ولدي، لا بأس نوفر لك نحن المبلغ ونصبر على لقمتنا.

- إلى متى يا أمي؟ فار تنور الصبر يا أمي، لكل شيء نهاية فمتى ينتهي هذا الشقاء والفقر!

- وهل الفقر عيب يا بُني؟

- ليس بعيب، لكننا لسنا فقراء، بيده هو أن يجعلنا أغنى الأغنياء، لكنه أناني لا يحب إلا نفسه. هو ربّ المنزل وبيده سعادة وتعاسة الأسرة،

هو السبب يا أمي في نقصنا أمام الناس، وفي العناء الذي نقاسيه. تعبت ولا أريد الصبر والتحمل بعد الآن. أريد حياة مثل الناس الطبيعية والمستقرة. لا أطلب أكثر مِمَا يتمناه أي إنسان طبيعي. أهو شاق عليه أن يُحبنا ويهتم لأمرنا؟ أنرهقه حين نريد منه أن يعاملنا كأبنائه؟

احتضنته حسناء وهي تكابد دموعها:

- "وبشر الصابرين" يا بني، نهايتنا سعيدة إن شاء الله.

وتعود حسناء لنفض غبار ماكينة الخياطة. ابنها أستاذ والآخر جندي في "صعدة"، وعامر لا يهمه سوى نفسه وملء كرشه باللحم والاهتمام بعظامه وتقويتها وتنميق حديثه للناس ليكسب حبهم واحترامهم. تحملت حسناء همًا جديدًا ومن نوعٍ آخر عليها، ألا وهو البحث عن عروس لطه. حدثها عن رغبته في الزواج بابنة خاله فذهبت إلى أخيها وهي فرحة وواثقة من موافقته، لكنها عادت بقلب مكسور. قال لها:

- لا تشكو ابنتي من عيب لأزوجها ابنكِ؟ عيب ابنك أن أبوه عامر.

تقدمت بعدها لمنزلٍ واثنين وثلاثة وأربعة، ومع كل طرقة باب ينكسر جزء من فؤاد طه وأمه. منهم من يرفض بأسلوبٍ مهذب متعللًا بأي شيء، ومنهم من يرفض وهو يخرج الكلام من أنفه معلنًا سبب رفضه دون مراعاة لمشاعرها. أغلبهم رفضوا طه للسبب نفسه الذي أعلنه عبد الواحد. السبب هو عامر وأخلاقه وخلافاته المتكررة مع حسناء التي يعلمها القاصي والداني.

وفي لحظة يأس تلقى طه اتصالًا من أبيه في الحديدة. قال له جملة واحدة:

- احضر للحديدة الآن، عثرت لك على عروس.

لم يُصدق والده، ولكي يقطع الشك باليقين سافر إلى الحديدة ولم يأخذ معه إلا القليل من المال خشية أن يسلبه منه عامر.

❊ ❊ ❊

ذكريات تُعاود زيارة قلبي مُجددًا

تفتح صدري رغمًا عني

وتُحدِثُ شقًا في قلبي

وتنهال عليّ كصلاةٍ تنعش روحي

وتحملني نحو الآفاق

"دُعاء"

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

٩

السعودية ١٩٩٠م

"ليدي ليدي ما أروعها

ليدي ليدي هيا معها

ليدي من حُسنٍ وجمال، تسمو نحو الأفق الرائع

رحلتها سِحرٌ وخيال في أرجاء الكون الواسع

فوق جواد الحلم الأبيض ترحل معنا ليل ونهار

بين قصور الدنيا

تركض وتغني مثل الأطيار

هيا نصغي لحكاياتها"

لا تحتاج "منار" لمناداة إخوتها. فور سماعهم أغنية كرتون "الليدي ليدي" يأتون من المطبخ وغرف النوم والصالون والحمام لمشاهدة المسلسل وهم يتناولون الفوشار والبسكويت مع العصير وعيونهم مع كل كلمةٍ تنطقها ليدي من شاشة التلفاز الملونة. لا يشغلهم شيء سوى انتظار كرتون الليدي وتغيير نوعية البسكويت وتغميسه في الحليب أو العصير أو الشاي.

ثمانية أبناء. تجلس "منار" أكبرهم، على الكنبة الزرقاء، وإلى جوارها "ليلى"، وعلى الأرض الرخامية يستلقي "نزار" بالعرض، ورأس "بدر" عند

قدميه، وفي جهة اليمين تجلس "أماني"، وهي تحتضن رأس "نهى" في حِجرِها، بينما "صادق" يجلس القرفصاء، وآثار البسكويت على شفتيه، أما أصغرهم "لول" ذات الأربع سنوات، فشغلها الشاغل تعكير صفو إخوتها برميهم بحبات الفوشار ثم الفرار نحو أمهم "تحية" كلما هموا بضربها.

والدهم "سعد"، رجل طيب، يعمل في بيع الحليب. يخلطه بالماء ويضيف إليه خلطته السرية. يتهافت عليه الزبائن من السعوديين والأجانب. يزدحمون حول عربته الصغيرة من السابعة صباحًا إلى العاشرة مساءً. ويساعده في عمله شابٌ ثقيلُ اللسان لكنه فَطِنٌ، صحيح البدن، وغني الفكر والخيال، اسمه "بكر".

حال انتهاء سعد من عمله في منتصف الليل يكون الجو رائقًا ومناسبًا للتنزه. يقف بسيارته أسفل العمارة. يزمر ثلاث مراتٍ متتالية لتتسابق قلوب أولاده قبل أقدامهم للتنافس على حجز المكان المميز في السيارة قرب النافذة. كالعادة تنزل زوجته تحية آخرهم، وتأخذ مكانها إلى جوار النافذة وفي حضنها لول التي لا تفوت إخراج لسانها لإغاظة إخوتها. بعد جولة في شوارع مكة يحين موعد العشاء في المطبخ المُختار بحسب التصويت أو القرعة، ويحق لكل فرد اختيار الوجبة التي يحبها. غالبًا ما يعرف أصحاب المطاعم العم سعد، لشهرته في بيع اللبن المثلج أو لكثرة تردده مع عائلته على مطاعمهم.

دخل العم سعد السعودية وهو في السابعة، بحذاء مطاطي وبدلة واحدة، فإذا اتسخت يغسلها ويجلس وراء إحدى السيارات منتظرًا جفافها. لم يفكر قبل

دخوله المملكة ماذا سيعمل وأين سينام وماذا سيأكل. كل ما كان يتمناه هو رؤية الكعبة والعمل بسلام. سلم أمره لله، وفي الحرم المكي التقى بشيخ سعودي، أسود البشرة. ولأنه لم ينجب فقد أحب سعدًا. أخذه معه لمنزله وأكرمه وألبسه وأطعمه وجعله يعمل في ماله.

كبِر سعد في النعيم، ومعه شاخ الرجل السعودي وزوجته. وبعد أن توفاهما الله انقض الورثة من أولاد العم والإخوة على أموالهما. لم تطل فترة التشرد الثانية في حياة سعد، فقد تعرف في الرياض على رجل هندي يعمل في صناعة اللبن لأحد المطاعم. تعلم منه سعد أصول المهنة وسرها ثم عاد إلى مكة واشترى عربة صغيرة وهو لا يتوقع أن الإقبال على بضاعته سيكون كبيرًا، كما لم يكن يتوقع أن العربة ستكون مصدر دخله الوحيد له ولأولاده الذين يعتبرهم رزقه وسبب نجاحه، لذلك لم يكن يحرمهم من شيء وكان يحاول إعلاء قدرهم وتقوية شخصياتهم. لم تذق جلودهم الضرب ولا آذانهم الشتيمة ولا أنفسهم الإهانة، ما يتمنونه يجدونه وما يرغبون في رؤيته يحصلون عليه. كانت أيامهم تمضي ملونة: حمراء وزرقاء وزهرية. مستقبل جميل في بلد هانئ خال من المنغصات. الصباح يتعلمون في مدرسة تشبه المنتزه، والمساء يقضونه في التجول على السيارة. لم يعرفوا أبدًا أن المال غير متوفر. حين يتابع سعد نشرة الأخبار وتعلن المذيعة عن ارتفاع معدلات الفقر في دولةٍ ما، يسأله أحد الأولاد بدهشة:

- ماذا يعني الفقر؟ أليس لديهم عربة لبن مثلنا؟

يحتار كيف يصف لهم ما جربه هو. كيف يقول لهم إن الفقر هو عدم وجود المال؟ وهل الفقر في المال فقط؟ بعد تفكير يجيبهم:

- ستكبرون وستعرفون، العلم نور.

حنان الأب والأم هو ما جعلهم يشعرون بالأمان والطمأنينة. نشأوا في جو أُسري صحي: يعمل الأب طوال النهار وقسطًا من الليل، بينما تهتم الأم بشؤون المنزل. ينام الأطفال كل ليلة بعد عشاءٍ دسم وقصةٍ مشوقة من قصص تحية، تنسجها لهم بصوتها الدافئ. تحتضنهم الأحلام السعيدة في المنام، وفي الصباح يولدون على مائدة إفطار عامرة تضم سبعة أكوابٍ من اللبن وسبعة أطباقٍ تتنافس روائحها الزكية في ملء المكان: بازلاء خضراء، جبن رومي، زيتون، حلوى طحينية، بيض مسلوق، قشطة، شرائح طماطم مع الخيار. وفي غضون عشر دقائق يكونون قد أنهوا الأطباق، وتحية تقول مبتسمة:

- كلوا وتغذوا، أنتم كل ما نملك في الدنيا.

ويبدأ التنافس من جديد على أيهم يرتدي ملابس المدرسة أسرع. وبعد الانتهاء ينقسمون: جزء منهم يراقب عقارب الساعة، وجزء يراقب من الشرفة قدوم الباص. هكذا يكون أول يومٍ لهم في المدرسة. قبلها يكون كل همهم متى يشتري والدهم أدوات المدرسة الجديدة.

في المساء يستلمون أدواتهم المدرسية داخل أربعة كراتين ضخمة تحوي ما لا يقل عن عشر حقائب ظهر، وعشرات من أقلام الحبر والرصاص، وأخرى جافة باللونين الأسود والأزرق، وعشرات الدفاتر وكراسات رسم ودفاتر

تلوين، إضافة إلى المحايات والبرايات والمساطر وأقلام التلوين وأدوات الهندسة مع دفاترها الخاصة، وثياب وأحذية للأولاد وفساتين وأحذية ومساحيق تجميل للفتيات. وتبدأ عند الأولاد معركة من نوعٍ آخر. يبحث كل واحد منهم عن حقيبته المناسبة أولًا ثم يبدؤون بحشوها بالقرطاسيات، ولا تهدأ نفوسهم إلا بعد إفراغ جميع الكراتين. وبعدها يحملون الحقائب إلى جانب أسرتهم، وقبل إطفاء الأنوار تدخل تحيه لتسرد لهم قصة الليلة.

فاجأتها منار ذات ليلة:

- أمي، احكِ لنا قصة زواجك أنت وأبي.

ارتسمت ابتسامة خجل على وجه تحية وهي تقول:

- سأحكي لكم.

استلقوا على ريش أسرتهم والتحفوا بأغطيتها وعقولهم تنتظر ما ستسرده تحية.

- لم يكن والدي مثل والدكم. أنتم محظوظون جدًا بوالدكم. هو كنزكم العظيم في الدنيا. وهبكم حياته وقوته وعرق جبينه، يضغط على نفسه وينفق طاقته من أجل تذليل المصاعب وجعل حياتكم وردية.

منار وليلى، نزار وبدر، كانوا يعون ما تقوله أمهم. قاطعتها أماني قائلة:

- أمي، هل انتهت القصة؟ لم تعجبني.

ضحكت تحية.

- بل من عند والدي تبدأ قصتي. كان والدًا بالاسم فقط. توفت أمي بعد ولادتي مباشرة، ولم يحزنه موتها. ما أحزنه هو أنه كان يريد ولدًا يحمل اسمه، لذلك تزوج بعد فترة وجيزة أملًا منه في إنجاب ولد. منذ لحظة ولادتي وأنا أتحمل ذنبًا ليس لي يد فيه، ذنب أني فتاة. أنجب والدي ولدًا وراء آخر، وكنت خادمتهم بلا شك: أغسل أقدامهم قبل ملابسهم، وأعمل في الأرض، بدلًا عن الثور، لإطعامهم، وأجلب الماء من أسفل الوادي بدلًا عن الحمار.. وبعد هذا كله ظللت في نظرهم مذنبة. كل ما أقوله وأفعله خاطئ حتى إن كان صائبًا. لم يكن مسموحًا لي إبداء رأيي ولا يحق لي أن أطلب أو أُعبر أو أحلم. كان أبي يعاملني مثل سائر حيواناته، وكأني بلا مشاعر. مرةً جعلني أنام في حضيرة البقر في ليلة شديدة البرد فتلحفتُ بالأعلاف. وبعد أن أعيتني حياتي تلك وصعُبت عليّ نفسي هربت إلى عمي وكل ما كنت أطلبه هو المعيشة الكريمة. استقبلتني زوجته– التي هي أخت زوجة أبي– بالشتيمة والضرب والإهانة عند غياب عمي. استحملتها، فنار بيت عمي أبرد من نار بيت أبي. اعتدتُ على هذا الوضع إلى أن قرر عمي السفر للعمرة. بكيتُ يومها وترجيته وقبلت قدميه لأذهب معه وبالفعل أخذني. كنتُ أطوف حول بيت الله ودموعي على خديّ وقلبي يأكله الهم خشية

من عودتي لزوجة عمي ولإخوتي. اعتمرنا مرةً واثنتين، والثالثة أنا من أصررت على عمي للقيام بها. يومها التقيت والدكم وهو معتمر وعرفت فيما بعد أنه صديق عمي.

بدأ الأولاد يتحمسون وأصواتهم تعلوا: أكملي يا أمي أكملي.

- سلم والدكم على عمي بينما عيناه لا تبارحان عينيّ.

قاطعها دخول سعد. قبَّل رأسها وجلس إلى جوارها ليكمل القصة:

- بعدها طلبت يدها من عمها وتزوجنا خلال أسبوع. دفعتُ مهرها خمسمائة ريال، ويوم زواجي منها رزقني الله بألفي ريال. أخذت أمكم إلى محل الحلويات واشتريت كعكًا دائريًا على هيئة سوار... (ضحك وهو يتذكر الموقف)، هل تعرفون يا أولاد ما فعلته أمكم؟ أجابوه بحماس:

- أكمل أرجوك، ماذا فعلت؟

- ارتدتها في رسغها. كانت تظنها مجوهرات.

ضحكوا وناموا، ولا خوف من الغد يخيم على قلوبهم.

❊ ❊ ❊

١٠

في الصباح يتحول منزلهم إلى لخلية نحل، تبدأ الحركة فيه منذ الفجر، استعدادًا للمدرسة. منار، الأخت الكبرى، هي من تتحمل العبء الأكبر، لا سيما وأن هذه السنة هي الأولى لنهى في المدرسة والثانية لأماني. تُدخِل الصغيرتين إلى الحمام، وتبدأ طقوس العناية الصباحية: فرك وتلييف، وصب الماء ثم رش العطور والكريمات المعطرة، ثم تسريح الشعر بالمشط الكهربائي وسط صراخ متقطع ووجع يترك خدودًا مُحْمَرة. تأتي بعدها مرحلة ارتداء الزي الوردي الرسمي للمدرسة مع الجوارب البيضاء، ثم الجلوس في انتظار الإفطار. أما تجهيز الفتيان فمهمة لا تستغرق الكثير من الوقت. حين يكتمل العدد حول المائدة يبدو المشهد لمن يراه لأول مرة وكأنه يوم عيد. وبعد أن يستيقظ سعد، يجلس في مقدمة المائدة وإلى يمينه زوجته تحية وفي حجرها لول وإلى يساره منار بترتيب يراعي الأعمار، من الأكبر إلى الأصغر. يتهامس الأبناء منذ الليلة الماضية عن مقدار مصروف المدرسة. أعينهم معلقة على ساعة الحائط وآذانهم تترقب سماع صوت الباص، وحين ينهض سعد من المائدة ينهضون جميعًا خلفه.

يبتسم قائلًا:

- مصروف المدرسة، لم أنسه.

يخرج من جيب ثوبه الأسود كيسًا صغيرًا من القماش ممتلئًا بالعملات المعدنية. يمد الأولاد أيديهم وهو يعد:

- هللة.. اثنتان.. ثلاث، لكل واحد.

يرتفع صوت منار معترضًا:

- أبي، أنا في نهاية الإعدادية، بينما أماني ونهى في الابتدائية، وتعطينا المبلغ نفسه!

يبتسم بمكر ويقول:

- صحيح معكِ حق يا منار. سأعطيهما هللة واحدة فقط.

تعترض منار بتذمر:

- لا يا أبي، فقط أضف لي ولنزار هللتين.
- حاضر، وهل لي غيركم في هذه الدنيا...

وقبل أن يكمل عبارات امتنانه ينصرفون من أمامه كالريح فور سماعهم صوت الباص.

يقبَّل سعد رأس تحية وخديّ لول وينصرف لعمله، وهو يفكر: كم مضى على آخر زيارة لي إلى اليمن؟ عندما وطأت قدميه أرض المملكة قبل سنوات لم يكن في مخيلته أنه سيستقر فيها، أو أنه سيتزوج منها وينجب فيها، وها هو الآن يعيش حياة كريمة، ويرسل لأخيه مبلغًا من المال كل شهر ليبني له منزلًا هناك، احتياطًا لغدر الزمان.

يصل إلى حيث تقف عربته فيجد بكرًا قد فتحها وبدأ في تلبية طلبات الزبائن. يرتدى زي العمل: قفازين وغطاءً بلاستيكيًا للشعر. يبدأ بغرف اللبن من الوعاء الكبير ثم يملأ العُلب الصغيرة ويُحكم غلقها وتغليفها بالكيس الحراري. وبعد أن ينفض الزبائن يحضر بكر الشاي ويجلسان سويًا ليتبادلا أطراف الحديث عن الشؤون العامة والخاصة. لكن في ذلك اليوم لاحظ سعد شيئًا في ملامح بكر؛ بدا عليه التوتر والتردد. قال له سعد بنبرة فيها فضول واهتمام:

- أنا في مقام والدك، هل يوميتك لا تكفي؟

قبَّل بكر يد سعد اليمنى وقال:

- لا يا عم سعد.... الحمد لله. تكفي وتزيد.
- إذًا ما بك يا ولدي؟
- ما رأيك فيّ يا عم؟
- تقصد في عملك معي؟
- في شخصيتي وأخلاقي.

أنت رجل يا بكر. دخلت السعودية وحدك، وبحثت عن رزقك ورزق إخوتك ووالديك في اليمن. عملت في مهن عديدة: في تلميع السيارات وفي حمل الإسمنت وفي البناء ورعي الماشية، لم تخجل من أي عمل حلال لا ينقص من قيمتك الإنسانية. في كفاحك دليل على عظمتك وعلى أنك رجل

يُعتمد عليه.

- أنوي الزواج يا عم.
- خير البر عاجله، أشر على الباب الذي تريد أن تطرقه وسأذهب معك. لا تقلق من شيء.
- هو بابك يا عم سعد، وأرجو ألا تغلقه في وجهي، أريد منار.
- كما قلت لك يا بكر، خير البر عاجله.

انفرجت أسارير وجهه حين قبل سعد طلبه. وقف حائرًا من الفرح لا يدري ما يفعل. خلع قبعته البيضاء وأخذ يتحرك يمينًا ويسارًا بارتباك، وأخيرًا قال:

- والله يا عم سعد سأدفع المهر الذي تطلبه و.. وسأسعدها ولن تحتاج شيء، أعدك يا عم سعد، أعدك.
- يا ابني، أنا لا أتمنى لابنتي سوى رجل نبيل، الدهر ليس له أمان ومعادن الرجال الأصيلة لا يضرها تقلب الزمان.

عاد سعد مبكرًا على غير عادته. دخل مبتسمًا وهو يرمق منار بنظرات سعيدة لا تعرف مغزاها، ولم تمض سوى دقائق حتى سمعت الصوت يعلو من غرفة والديها:

- ابنتي لن تتزوج الأعجم الفقير.
- هل المشكلة أنه ثقيل اللسان أم أنه فقير؟
- هذا ليس الوقت المناسب للمزاح.

- قال رسول الله: "إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلقه فزوجوه" وبكر لا عيب فيه والكمال لله. هو رجل يا تحيه سيفدي ابنتنا بروحه، وأنا وأنتِ لن ندوم لها طويلًا.
- من حديثك هذا أفهم أنك قد وافقت!
- والزفاف آخر الشهر.

فتحت تحيه قلبها لتقبل العزاء بعد أن أخبرت صديقتها نجمة وابنتها جميلة بقرار سعد. وبدورهما شاركتا في الندب حتى وصلت أصواتهن إلى أذني سعد. أخذ منار إلى السوق وبمهرها، خمسة آلاف ريال سعودي، اشترى لها الذهب والملابس وأدوات التجميل وكل ما قد تحتاجه. كانت منار ترغب في الزواج لكن ليس من بكر. في المساء حضر المأذون وعقد القِرآن فأصبحت منار زوجة بكر. أقام لها والدها حفلًا كبيرًا في المنزل، أحضر جماعة متخصصة في الزينة وجماعة أخرى قامت بتحضير مأدبة الضيوف. ذهبت منار إلى مركز التجميل برفقة جارتهم جميلة، ابنة نجمة التي ظلت تهمس في أذنها من وقت لآخر بما يجب عليها فعله وما لا يجوز فعله، والطريقة السليمة للتعامل مع الرجال مثل بكر. قالتها لها بالمصري:

- اذبحي له القطة من أول ليلة.

أذنا منار تصغيان وعقلها يسجل ويحفظ ووجهها يتلون؛ تارة من الخجل من جرأة حديث جميلة وتارة مصدومة بما تسمع وتارة من الخوف على نفسها من المجهول. وبعد يومٍ حافل بالأغاني المفهومة وغير المفهومة وبصراخ

الأطفال ودلع البنات وهمز ولمز وغمز النساء على أي شيء لا يروق لهن.

في المساء أتى بكر، وقلبه يسبق قدميه، وهو بأبهى حُلةٍ لكي ينال إعجاب منار، ابنة المدارس التي لا يعجبها شيء. منار التي كان يراقبها في كل مرة يدخل فيها منزل سعد، ويتتبعها بنظراته الخجولة حين تزور والدها في مكان العمل. راقب ابتسامتها وغضبها وتذمرها، وقد أحبها بكل حالاتها. ظل يتناول الرغيف مع اللبن في الوجبات الثلاث لكي يوفر مهرها رافضًا أن يستدين فلسًا من أحد. استأجر شقة وفرشها بأثاث لن يكون فخمًا كأثاث منزل والدها، لكنه جميل وبسيط، وفي غرفة نومهما مكيف. يعرف بكر أنه ليس وسيمًا لكنه يراهن على شيء آخر؛ على طيب المعاملة وتلبيته لطلباتها والرفق بها. وهو على يقين بأن منار سترى جماله الداخلي مع مرور الأيام.

أوصاه والدها وهو يسلمها لبكر:

- منار أمانة لديك. أحسن معاشرتها وأسعدها، وكنّ لها الزوج الذي تتمناه لأخواتك. ومبارك عليكما ورزقكما الله بالذرية الصالحة.
- منار في قلبي وعينيّ، أعدك يا عمي أنك لن تندم على زواجها مني.

❊ ❊ ❊

١١

حرب الخليج ١٩٩١م

دوام الحال من المُحال، ومن لم يكن يسمع طوال عمره فتح الآن أذنيه، ومن لم يكن يرى فتح الآن عينيه. وصلت الأخبار لكل ثقبٍ وجُحرٍ، وأصبح الحدث حديث المجالس رجالًا ونساءً. الجميع عيونهم على شاشة التلفاز وعلى خبر واحد بعينه.

الرئيس العراقي "صدام حسين" يغزو الكويت. قيل إنه اختلف معهم على النفط، وقيل إن امرأة اغتصبها كويتي ولم تنصفها السُلطات فاستنجدت بصدام حسين فلبى ندائها بغزو الكويت خلال أربعة وعشرين ساعة وهدد بأنه لن يرفع عنهم الحصار إلا بتسليم الجاني وإعدامه على الملأ. هكذا تغلبت الشائعات التي تتناقلها الشفاه وتتلقفها الآذان على أخبار التلفزيون وأصبح شرف كل امرأة عربية بيد صدام حسين. وقف الرئيس علي عبدالله مع صدام حسين قلبًا وقالبًا وخرجت مظاهرات جماهيرية غفيرة إلى الساحات والشوارع وهي تهتف: "بالروح بالدم نفديك يا صدام."

كان لموقف اليمن المؤيد للعراق أثر سلبي على المغتربين اليمنيين في السعودية؛ بحكم أن السعودية تقف مع الكويت. وضع المغتربون أيديهم على قلوبهم؛ فمصيرهم مرتبط بقرارات الملك فهد. وحين أُصدِرت

القرارات كان الجميع أمام شاشات التلفاز ينصتون إلى نص القرار الذي أدى في نهاية المطاف إلى مغادرة أي أجنبي لا يكفله مواطن سعودي. وبات على كل من يملك مشروعًا صغيرًا أن يحوله إلى مصنع تحت كفالة سعودي، وإلا اضطر إلى التخلي عنه ومغادرة البلاد.

وقع الخبر على رأس المغتربين كالصاعقة. لم يكونوا يخشون من العودة إلى الوطن بل يخشون القادم المجهول. كان بعضهم قد أمَّن نفسه ببناء منزل ومشروع في بلده انتظارًا ليومٍ أسود كهذا، ومنهم من لم يفكر سوى في قوت يومه. البعض لجأ لأصدقاء سعوديين من أجل الكفالة، وكثيرون عادوا دون أي محاولة للبقاء. لم يكن هذا الحدث المحور الأساسي في السعودية فقط بل في كل البلدان العربية التي انقسمت شطرين: شطر يساند صدام حسين وشطر يساند الكويت. ومثل الجميع اغتم سعد وضاق صدره وحدثه عقله: "ما الذي كنت تظنه يا سعد، هل ستدوم لك بلاد الغربة! اترك بلاد الغُربة فليس لك فيها منزل ولم يعد لك فيها عمل ولا حبيب ولا قريب، عُدّ لبلدك وسيُفرجها الله عليك."

كان قراره واضحًا:

"سنعود لليمن، لدينا هناك منزل، هو مسقط رأسنا وسأجد هناك باب رزق."

لم تُعارض تحية ولم تصرخ ولم تحتج مثلما فعلت ابنة صديقتها جميلة وهي تقول لزوجها صادق:

"لن أعود لليمن يعني لن أعود، سأكلم أختي ليكفلنا زوجها السعودي."

أجابها صادق معترضًا:

- يكفلنا زوج أختك السكير!
- كُل نفسٍ بِمَ كسبت رهينة، لا شأن لنا به، كل ما عليه كفالتنا فقط.
- لن أُسلم رقبتي لسكير يا جميلة، أنا يمني خُلِقتُ حُرًا وسأظل حُرًا، وقد اتفقت مع العم سعد، سنعود لليمن سويًا ونشتري منزلًا بجانب منزلهم.
- تذَّكر كلامي يا صادق، ستندم على قرارك هذا ولن أُسامحك مدى العمر.

نهض من مكانه وفتح لها التلفاز قائلًا:

- انظري كم هي بلادنا جميلة! بلادنا أكرم من أي بلد أخرى.

كانت قناة اليمن، الوحيدة وقتها، تبث مقاطع مصورة للأرض الخضراء والجو العليل.

نظرت له زوجته بحنقٍ واضح وغادرت المنزل.

"ليدي ليدي ما أروعها

ليدي ليدي هيا معها"

الأولاد في غرفة التلفاز يشاهدون "الليدي" وحقائبهم أمامهم، يرتبون

ملابسهم استعدادا للعودة، وفي الغرفة المجاورة كانت تحية في بداية شهرها التاسع ومنار تساعدها وصوت سعد في الغرفة المقابلة يعلو على صوت بكر الهادئ.

- طلق ابنتي يا بكر.
- يا عم اسمع مني، صديقي السعودي سيكفلك وستعيش أنت وأولادك هنا، سنعمل معًا وسنؤسس مصنع لبن ونرتاح يا عم ونشتري التابعية."
- "قلت لك لا، وهذا قراري الأخير وعليك أن تطلق ابنتي."
- سامحني يا عم، أنت في مقام أبي وأخذت بيدي وكنت لي خير مُعين وفضلك على رأسي إلى يوم الدين، لكن منار زوجتي وأنا المسؤول عنها وقرارها بيدي وأنا في كفالة سعودي الآن ولن تستطيع فعل شيء لي، اعذرني يا عم لكنه مستقبلي ومستقبل أولادي.

أخذ منار وسعد يصرخ:

- يا خسارتي فيك يا بكر، لم تكن الرجل الذي يستحق ابنتي، لكن أنا من أخطأ وليس أنت.

وبينما كان ترتيب الحقائب يجري على قدمٍ وساقٍ كانت تحية تصرخ حينًا وتكتم ألم حملها حينًا آخر، بينما كانت جميلة في الطابق العلوي تبكي مع كل قطعة ملابس تطويها تألمًا لفراق والدتها وأخواتها. أما سعد وصادق فكانا يدندنان بأغنيات وطنية يمنية ويصفان للأولاد كم هي خضراء أرض اليمن

ونقي هواؤها وكيف أنهم سيعيشون سعداء في أرضهم ومن خير مالهم. قال سعد محدثًا الأولاد عن سبب تسميتها أرض السعيدة:

"اليمن يا أولاد مشهورة بزراعة البن ولا يوجد بلد في العالم يزرع البن العربي الأصيل مثل اليمن حتى أن دول العالم قاطبة تستورد البن من اليمن. كان هناك حاكم يمني قوي وذكي لم يكن يُصدر البن إلا مطحونًا، هل تعرفون لماذا؟"

احتاروا في الجواب قليلًا قبل أن تجيب أماني:

"كي لا يُزرع عندهم."

صفق لها سعد والأولاد من خلفه:

"صحيح يا أماني. اليمن غنية بتصدير البن الذي يُعادل دخله المالي النفط، هذا غير الخضروات والفواكه التي تجعل اليمن غنية أكثر وأرضها أكثر وفرة وجمالًا. افرحوا يا أولاد أنتم عائدون لأرضكم. لقد سميت اليمن في التوراة بالأرض الغنية وسماها المصريون الأرض المقدسة وسماها المستشرقون بلاد الغرائب وسماها الإخباريون بلاد القصور وسماها استرابون بلاد الطيب ولهذا سُميت اليمن السعيد."

هكذا رسم لهم اليمن جنة، وبخيالهم الطفولي رسموها كقطعة من باريس مثل بلاد "الليدي ليدي".

حملت لحظات الوداع الكثير من الدموع ووعودًا بقرب موعد اللقاء لكنهم في قرارة أنفسهم لا يعرفون مدى صدقها. بعد خروجهم من الحدود السعودية بدأ جبين تحية يتفصد عرقًا وأخذت تصرخ بسبب آلام المخاض أحضر لها سعد مقصًا. وطلبت جميلة منهم الخروج من السيارة. مدَّدت تحية على ظهرها ويداها ترتعشان خوفًا. همست في أذن تحية:

- أخاف عليكِ يا تحية، أنا لم أفعلها من قبل.
- لا عليكِ، المهم يعيش طفلي.

وبيدين مرتجفتين وقلب يعتصره الخوف، خلعت جميلة سروال تحية القطني بينما كانت تحية تصرخ من الألم وتشجع جميلة ويداها أسفل ظهرها.

- اسحبي الرأس بخفةٍ يا جميلة وسرعة ولا تخافي، الله معنا.

لم تصدق جميلة أن هناك طفل يبكي في يدها وفي يدها الأخرى مقص تقطع به الحبل السري. ألبسته ملابس قطنية ولفته بملاءة بيضاء ثم نادت صادق ليحمله لسعد الذي تهلل وجهه فرحًا وقال:

- هذا بركة دخولنا اليمن، سأسميه بَركة.

أخذت جميلة البطانية من تحت تحية ومسحت بها آثار الدماء من السيارة ثم وضعتها داخل كيس بلاستيكي ورمتها بعيدًا. قدمت لتحية كوبًا من الحليب وبعض التمر. وبعد ساعات قليلة تحركت السيارة وبدأت معالم اليمن

السعيد بالظهور عند أول "عُشةٍ" مروا بها ثم أخرى. وتوالت بعدها العشش على جانبي الطريق. نظر الأولاد من نافذة السيارة بدهشة إلى ذلك الشيء المثلث الذي يخرج منه الناس. أخذت عقولهم البريئة تطرح الأسئلة: ماذا يفعلون داخلها؟ هل يعيشون فيها؟ هل يتبللون حين تهطل الأمطار؟ وإذا اشتدت الريح، هل تطير بيوتهم؟ قطع عليهم تفكيرهم صوت جميلة:

- هل أتينا لليمن يا صادق أم أخطأنا الطريق ووصلنا جنوب أفريقيا!

تبعها سؤال ليلى حين رأت مزارع القات:

- أبي، هل هذا البن الذي حدثتنا عنه؟

أكملت أماني:

- نعم هو، وهم يطحنونه كذلك!

ضحكت جميلة وهي تقاوم الدموع في مقلتيها. قالت:

- نعم، هذا هو البن اليمني المطحون، هل قال لكم والدكم كيف يطحنونه وكيف يأكلوه!

أجابتها ليلى:

- هو لا يؤكل يا جميلة، يُشرب بعد أن يُغلى.

أكملت أماني:

- ونتيجة تصديره إلى الخارج فهو يعادل النفط، لذا اليمن غنية!

خانت جميلة دموعها وسألت:

- ماذا قال لكم والدكم أيضًا؟

لقد كرهتك ذات يوم

وأسرفتُ في كراهيتك

وددتُ لو قتلتك وقتها ورميتُ الدنيا بجحيمها خلف ظهري

حتى الذكريات السعيدة ما استطاعت أن تغفر لك

"دُعاء"

❊ ❊ ❊

١٢

سعد من أخطأ...

أخطأ حين صور لأولاده واقعًا ورديًا لا يوجد سوى في مخيلته. أخطأ حين لم يُهيئهم نفسيًا لمواجهة المجتمع الجديد، وأخطأ في حق نفسه وفي حقهم حين لم يستمع لبكر. وتوالت عليه عواقب الأخطاء لاحقًا. أول خطأ اقترفه في حق نفسه عندما سلم أمواله لأخيه لبناء منزل له. عشر سنوات وهو يغرف له من عرق جبينه متخيلًا أن لديه قصرًا في اليمن، لكنه لم يجد سوى منزل من دورين. الأول مكون من محلين للحدادة وشقة متواضعة، والدور الثاني مكون من مجلس وثلاث غرف وحمامين ومطبخ. لكنه صبر واحتسب ووكل أمر أخيه لربه. فتح المنزل للأولاد وناموا يومها على البلاط بملابسهم وجميلة تُعاني معهم.

صباحًا...

أول ما فعله سعد هو شراء أثاث للمنزل. فرش المجلس بالكنب العربي، ولم يضع سجادًا على البلاط ليخفف من حرارة البيت بسبب جو الحُديدة شديد الحرارة. أما غرفة الأولاد فاقتصر أثاثها على دولاب من المعدن وباركيه يغطي الأرضية، وكذلك كانت غرفة البنات، ولم تختلف الغرفتان عن غرفة والديهم إلا بإضافة السرير الحديدي. أنجز المهمة الأولى أما الثانية فكانت

تسجيل الأولاد في المدرسة. لم يكن عليه شرح أي شيء لإدارة المدرسة فالجميع يعرف سبب خروج المغتربين من السعودية، أما المهمة الأكبر فهي فتح عربة اللبن وبِدء العمل.

كانت صدمته عظيمة في أول أسبوع.

لم يجنِ سوى القليل سلمه لصاحب الثلاجة المركزية ليحتفظ له باللبن كي لا يفسُد. في أول شهر بدأت أحلامه الوردية بالتلاشي وعزيمته بالانكسار. ثمانية أبناء إضافة إلى الوالدين، يعني عشرة أفواه في منزل. من أين يطعمهم ويكسيهم ويرفه عنهم! سمع ذات ليلة بكاء لول في حضن ليلى وهي تقول لها: "أريد حليبًا وبسكويتًا أسود". وسمع ليلى تدعوا في صلاتها بالفرج وتيسير أمورهم. تسلل العجز لقلبه رويدًا رويدا وهو يرى أبناءه يقومون من سفرة العشاء وهم جياع ويستفيقون على إفطار مكون من كوب لبن ونصف رغيف، أما الغداء فكان يشتريه من السوق بما تجود عليه عربة اللبن.

بدأت أحلام الأبناء تتبدد وطموحهم ينكسر ورؤيتهم لحياتهم في اليمن تتضح. أول درس تعلموه كان في المدرسة. في أول أسبوع كان لا يزال لديهم قرطاسيات من السعودية. كان لدى أماني ممحاة وردية مرسوم عليها "الليدي"، لم تكن تستخدمها خشية من أن تبهت الصورة أو تختفي. رأتها إحدى الفتيات، فسرقتها على غفلةٍ منها ثم صرخت في وجه أماني مدعية أنها صاحبة الممحاة. جلست أماني تبكي في مقعدها، ولم تغادر الصف إلى أن سمع صوتها أستاذ مصري. اقترب منها وبعد أن فهم ما حدث قال لها:

- لو ليكي حق عند حد كشري أنيابك.

تمزق حذاء نهى فتغيبت عن المدرسة ثلاثة أيام إلى أن لمعت في رأس أماني فكرة:

- عندي جزمة وحذاء، سأرتدي يومًا الجزمة وأنتِ الحذاء وبعدها العكس، ما رأيكِ؟
- موافقة، لكن المدرسة تشترط جزمة أو حذاء أسود، وجزمتكِ خضراء وحذاؤك وردي!

ابتسمت أماني بثقة وقالت:

- عندي الحل.

أمسكت بالحذائين وذهبتا لصاحب الورشة الذي يستأجر أحد المحلين من أبيها:

- كيف حالك يا عم وحيد؟
- الحمد لله يا أماني.
- لدينا طلب صغير.
- أبشري يا ابنة العم سعد.

وضعت الجزمة والحذاء على الأرض وقالت:

- أرجوك، ادهنهم بطلاء أسود، لن ندخل المدرسة إلا إذا كان لونهما أسود.

- حاضر، عودي بعد ساعتين وقد جف الطلاء.

احتضنت نهى أماني وهمست في أذنها:

- أُحِبُكِ.

- وأنا أُحِبُكِ.

بدافع فضول الشباب تحركوا لتجريب ما كان سعد ينهاهم عنه. كان أنسب وقت للتجربة هو في غياب والدهم، بالتحديد وقت المدرسة. مضغوا القات وابتلعوه فأصابهم تسمم غذائي. أخذهم سعد للمستشفى وصرف على علاجهم ما كان يدخره لشراء ملابس العيد. ولرغبته في مساعدة والده فكر نزار في التوقف عن الدراسة وبدأ خطته في القفز من أعلى سور المدرسة. كسرت قدمه فباعت تحية خاتمها لمعالجته وقضى في المنزل شهرًا كاملًا.

توالت المصائب على رأس سعد، وكانت كل مصيبة تترك ندبة في وجهه وخيطًا من الشيب في شعره، فانصرف للترفيه عن نفسه بالسجائر. اختلط ليله بنهاره فلم يعد يرى الأولاد، بل لم يعد يرغب في رؤيتهم؛ حتى لا يرون ضعفه وعجزه وقلة حيلته. ما رسمه في مخيلته ومخيلتهم شيء وما وجده في الواقع شيء آخر. عَظّ أصابعه ندمًا لكن هل ينفع الندم الآن!

أما صادق فاشترى منزلًا بسيطًا وباصًا يعمل عليه في توصيل الطلاب إلى المدرسة. رزق من جميلة بولد وبنت، وحين كان يقصر في شيء تشرع جميلة بجلده نفسيًا بتذكيره بالسعودية وأيامها، فيدفعه ذلك للعمل ليل نهار ليؤمن

ما يلزم قبل أن ينفد من المنزل، ولينجوا بذلك من لسان جميلة التي لم تتخلَ يومًا عن حلم العودة إلى السعودية ولازالت تتذكر أيام الرغد هناك. كانت تخطط للعودة لكن القدر يفاجئها كل عام بطفل يتحرك في أحشائها ليحبط بذلك كل محاولة للهرب.

كبر الأولاد واختلطت عليهم الأمور. الحاضر ينفي ما تقوله كتب التاريخ عن يمن كان يُزرع فيه البن قديمًا ويُصدر إلى جميع أنحاء العالم، وعن أرض كانت تجود بالخيرات: هواء نقي وبِحار وافرة وأنهار جارية، وتربة خصبة تثمر ذهبًا... خلافًا لواقع معاصر يقول إن معظم ما يُزرع في اليمن هو القات، بنسبة تقارب السبعين بالمائة، وما تبقى من الأرض يُزرع فيها خضارًا وفواكه وبُنًا وكلها لا تكفي حاجة أهل البلد. في كل بيت تقريبًا هناك شخص واحد على الأقل مدمن للقات وأحيانًا جميع أفراد الأسرة. يسهرون الليل، يبنون قصورًا في الهواء ويخططون لمشاريع تنهار مع أول خيوط الشمس. و"كلام الليل يمحوه النهار". اليمن فقيرة، لا لندرة مواردها، بل لندرة عقولها الواعية، تلك التي تفكر في استثمار الخيرات وتخطط للنمو والازدهار. اليمن منذ الأزل تبحث عمن يحبها لتعطيه، وعمن يحتضنها لتحتضنه. ما ينقص اليمن ليس الماء ولا الأرض، ينقصه العِلم والمعرفة العلمية، والكثير من زراعة البن.

❋ ❋ ❋

١٣

"ما الفقر يا أبي؟"

لو أعادوا عليه السؤال نفسه اليوم سيجيب بمزيد من الأسئلة:

"هل الفقر في المال فقط؟ ومن الذي يجعل الفقراء فقراء؟"

سيقول إن الفقر هو ألا تجد ما تأكله، هو أن تتمنى الشيء ولا تستطيع الوصول إليه، هو أن تكون أقل من غيرك في كل شيء. نعم، الفقر فقر المال، ومن يقول إن الفقر في النفس والافتقار للرضا وللقناعة أو للجمال الداخلي أو للحُب فهو واهم أو أنه غني لم يجرب معنى أن ينام أولاده جوعى، أو أن يشاهدهم حفاة أو بملابس ممزقة، لم يمرضْ ابن له فيقوم بغسله لتخفيف لهيب الحُمى عجزًا عن شراء الدواء، ولم يرَ الحرمان في عينيّ أولاده وكسرة أنفسهم وهم يشاهدون النعمة في ملامح غيرهم.

ما الذي يجعل الفقراء فقراء؟ هل هو الحظ أم أنه قدر كتبه الله؟ أم أن لنا فيه يدًا؟ لولا الغباء لما عُرف الذكاء، ولولا الفقر لما تميز الغِنى، ولو أن سعدًا بقي في السعودية لما ذاق الفقر. إذًا الفقر اختيار، لكننا نتعلل بقضاء الله وقدره.

يستيقظ سعد وينام ولسانه يردد: "اللهم إنا نعوذ بك من الفقر بعد الغنى." يخرج للعمل على العربة والسجائر لا تفارق شفتيه. شعره أشعث ولم يعد

يرتدي القفازين. أضاف إلى عربته طاولتين وأربعة كراس لمن يرغب في تناول اللبن عنده. يجهز اللبن ويقدمه للزبائن ويمسح الطاولتين والكراسي بخرقة اسودّ لونها من كثرة الاستعمال.

كان من عادة ليلى، أماني، ونهى مراقبة الناس من النافذة ويعلقن على شكل هذا وماذا يحمل ذاك، ثم يضحكن بسبب ودون سبب. ذات يوم وهن يراقبن من النافذة وقفت أمام منزلهم سيارة فارهة. خرج منها رجل تبدو عليه النعمة والثراء. دق جرس منزلهم. فتح لهم الباب رجل أربعيني لكنه يبدو في الخمسين؛ بشعره الأبيض وهالات سوداء حول عينيه وخطوط من الإرهاق ترتسم على جبينه وحول شفتيه، والسيجارة في يده.

- هل هذا منزل العم سعد؟
- نعم، أنا هو.

سلم عليه بحرارةٍ وكأنه أحد أصدقائه:

- أنا صديق بكر، ومعي رسالة منه.

كانت رسالة ورقية بخط منار تعبر فيها عن تحسن وضعهم في السعودية وعن سعادتها مع بكر وأولادهما: ولدين وابنتين. أرفقت مع الرسالة مبلغًا من المال أدخل الفرحة لقلب سعد. عاد الرجل للحديث:

- اسمي فتحي. أعمل مع بكر ولي طلب يا عم سعد.
- قُل يا بُني.

- أطلب يد إحدى بناتك.

يزوج سعد بناته بالدور، وكان الدور هذه المرة على ليلى. لم يسأل عن الرجل ومدى صِدقه، ولا عن أخلاقه ومصدر عيشه. كل ما كان في رأسه هو أن يتخلص ولو قليلًا من الهم الذي يثقل كاهله. عرف أن الرجل مُتزوج وستكون ليلى زوجته الثانية ورغم ذلك لم يعترض. عارضت ليلى بالصراخ والبكاء لكن دون جدوى. احتضنتها أماني وربتت على قلبها قائلة:

"تعرفين أن والدنا لا يكرهنا، لكن الفقر أرهقه يا ليلى، يريد لنا والدنا عيشة كريمة في كنف رجل، علينا الصبر فهذا نصيبنا من الدنيا."

تولت جميلة الخروج للسوق معها لشراء الملابس والذهب وكل ما يلزمها في حياتها القادمة. همست في أذنها، كما فعلت من قبل مع منار، بِما ينبغي عليها فعله وما لا يجوز، وكيف تتعامل مع زوجها وما هي الطريقة السليمة للتعامل مع رجل مثل فتحي. كل ما كان يزعج ليلى هي الزوجة الأولى. فكرت أنه يحبها أكثر وما زواجه منها في السر إلا خوفًا من غضبها، وتارةً تفكر أنه لو كان يُحب زوجته فعلًا لما تزوج مرة ثانية.

بعد شهر كانت ليلى قد تزوجت من فتحي. وأثبتت الأيام أنه شخص هادئ والأهم أنه شديد الاحترام لها، على عكسها؛ فهي سريعة الغضب ولسانها لا يعرف ما يقول. لم يُقصر معها في شيء، لكنه لم يوافق على سفرها إلى السعودية. اتضح فعلًا أنه تزوجها في السر خوفًا من زوجته السعودية لا حُبًا

لها. لو علمت بزواجه لحرمته من كفالتها له. استأجر لليلى شقة بجانب منزل والدها، وكان يرسل لها مبلغًا كل شهر، يصل ليد سعد فيأخذ نصفه، والنصف الآخر لها. ولم يكن هذا يزعجها. كانت تقول لنفسها: لا بأس من أجل إخوتي.

ترك نزار المدرسة ودخل السعودية تهريبًا. ومثله فعل بدر؛ ترك المدرسة لكنه ذهب لتعلم الحدادة عند أحد آباء أصدقائه. أما صادق فقد طُرِد من المدرسة مرتين وفي الثالثة هو من طرد نفسه منها بحجة أن المُدرسين لا يفهمونه ويتعمدون مضايقته.

ذات يوم ذهب سعد للحلاق ليقص شعره. تذمر الحلاق من وضع البلد وقلة دخله وحدثه عن زوجته التي تنجب طفلًا كل سنة ظنًا منها أنه سينشغل بمصاريفهم عن التفكير في الزواج مثل باقي الرجال. مع استمرار ثرثرة الحلاق خطرت في رأس سعد فكرة أن يمسك بالمقص ويقص لسانه. في تلك اللحظة دخل رجل ليقطع ثرثرة الحلاق وتفكير سعد.

- أهلًا.. أهلًا يا حضرة الضابط. نورت المحل.

جلس عامر بجانب سعد وأخذهما الحديث إلى رغبة عامر بعروس لابنه الأستاذ طه.

قال الحلاق:

- سأدلك على فتاة من أسرة محترمة.

- ولك مني عشرة ألف ريال بعد العقد.

أشار للعم سعد قائلًا: "نسب العم سعد سيشرفك يا حضرة الضابط. هو رجل شريف، عاد من السعودية رافعًا رأسه ولم يخضع للسعودة."

وكما فعلت ليلى فعلت أماني: اعترضت بالبكاء والرجاء، وتعذرت برغبتها في إكمال الدراسة وبأن العريس يكبرها بعشر سنوات وبأنها لا تريد الزواج والسفر بعيدًا عن أهلها. وكما طبطبت أماني على ليلى عادت ليلى لمواساة أماني:

"والدنا يُحبنا، لكنه يريد لنا الستر والعيشة الكريمة، الزواج قسمة ونصيب وإكمال للدين."

كانت أماني أكثر جرأة من ليلى. ذهبت للحلاق وطلبت منه إلغاء الزواج مثلما بدأه. نظر إليها وضحك وهو يغلق المحل في وجهها. وعندما حضرت حسناء للخطوبة قالت لها أماني:

- أنا لا أريد الزواج.

غسلت عقلها حسناء بكلمتين معسولتين عن حُسن وجمال وكمال ابنها، وأنه أستاذ وسيجعلها تكمل دراستها، وأنها ستحبها مثل ابنتيها وأنهم سيحملونها فوق رؤوسهم، وستشعر أنها في منزلها ولن يضايقوها بشيء، وستنجب الأبناء وسيكون لديها أسرة ومنزل، وهذا ما تطمح إليه كل فتاة.

قالت تحية في وجه عامر:

- ابنتي لا تريد الزواج، هي مجبورة.

أجابها عامر بخيلاء:

- لا دخل لنا في هذا، تتفق مع والدها، نريد عروستنا بأي شكل.

وعادت للمحاولة مع حسناء:

- ابنتي لا تعرفْ أي شيء عن شؤون المطبخ، حتى أنها لا تعرف كيف تُعِد الشاي.

أجابتها حسناء بوجه بشوش:

- في شرعنا العروسة لا تعمل أي شيء لمدة سنة وبعدها سأحملها في عينيّ وأعلمها مثل ابنتيّ، لا تقلقي عليها.

تدخل فتحي قائلًا لسعد:

- يا عم، لم أرتاح لهؤلاء الناس، اترك البنت تكمل دراستها وأنا سأتكفل بمصاريف الدراسة.

أجابه سعد:

- زواجها ضرورة، إخوانها لن يدوموا لها مثلما سيدوم زوجها.

- إن كان إخوتها لن يدوموا لها، وحتى لا تعود لكم يومًا، اختر لها عريسًا مناسبًا إذًا.

بعد دموع أماني الغزيرة ذهبت جميلة للمحاولة مع سعد:

- نحن عِشرة عُمر يا عم سعد، تقاسمنا معًا السعادة والحزن، وبناتك

مثل ابنتي، أرجوك اسمع مني ولا تزوجها لتلك البلاد، هم أُناس غُرب عنا ولا نعرف عنهم شيئًا.

- الأب ضابط والابن مدرس حكومي، ورواتبهما من الحكومة مدى العمر، ولديهم منزل ملك. ماذا تريد فوق هذا!

تدخل القاصي والداني، رغم أنهم لا يعرفون عامر وابنه، لكن سعدًا كان كمن لا يرى ولا يسمع، ولا يعي. قال: كما سهل الله زواج منار وليلى سيُسهل لأماني زواجها، هي صغيرة ولا تعرف مصلحتها، أما الدراسة فلا فائدة منها للبنات.

كان طه قد نشر خبر خطبته بين أهله ووصل الخبر لكل من رفضه بأنه تقدم لخطبة فتاة من أُسرة ثرية في الحُديدة، من فتاة مولودة في السعودية، وبأن الفتاة تفوق في جمالها كل بنات حجة. من جهتها لم تقصر حسناء في وصف حُسن وجمال وكمال عروستهم القادمة ورقي أهلها وأن ابنها صبر ونال ثواب صبره خيرًا.

❋ ❋ ❋

١٤

تمت الخطوبة على خير، لكن وجه أماني لم يكن بخير وقلبها لا يزال يغلي. لم يدخل العريس رأسها ولا أهله. أرادت التعبير عن رفضها بأية وسيلة ولم يسعفها عقلها الصغير سوى في بيع "دبلة الخطوبة". كانت أماني في الصف الأول الثانوي وصديقتها في الصف الثالث الثانوي متزوجة من تاجر ذهب معروف في الحديدة. عرضت عليها الدبلة واشترتها منها بتسعمائة ريال، عادت للمنزل وهي تشعر بالنصر والفخر بنفسها وقالتها في وجه سعد:

- بعت الدبلة اليوم، هذا يعني أني لستُ مخطوبة.

لم يُجب عليها بلسانه بل بيده. كانت المرة الأول التي يضرب سعد إحدى بناته. احْمرَّ خدها الأبيض. قال:

- غدًا الدبلة ترجع.

تدخل بدر في النقاش قائلًا لأماني:

- هل معكِ أحد تنتظرينه ومن أجله ترفضين هذا العريس؟

عادت لصديقتها في اليوم التالي. كانت صديقتها أكثر نضجًا ولم تعطِ الدبلة لزوجها فأعادتها لها وهي تحاول إقناعها:

- هذا نصيبكِ يا أماني. وموافقتكِ أو رفضكِ شيء مفروغ منه ولن يُعيد القدر المكتوب. تقبلي الوضع وتعايشي معه. إن كان ما ينتظرك

صالحًا فهذا رزق من ربّ العالمين، وإن كان فاسدًا فحاولي إصلاحه، واعلمي ألا أحد في هذه الدُنيا سعيد، نحن فقط نحاول خلق السعادة من قلب الحزن ونبحث عن الخير في وسط الشر.

عمِلت بنصيحتها لكن قلبها ظل يدعو بفشل الزواج. هي مثل كل الفتيات في سِنها تحلم بفارس أحلام يأتيها على حصان وردي. قالت لإحدى صديقاتها إنها تحلم بعريس من الإمارات فارع الطول ووسيم ويكون إمام مسجد. وعندما شاهدت صديقتها عريسها قالت لها مازحة:

- هذا فارس أحلام يقظة، جاءك على حِمار أسود وأحلامكِ ستكون أمانيّ يا أماني.

أتى عامر برفقة طه لزيارتهم. وبينما كانا يتحدثان مع سعد كانت نهى تسترق حديثهم من وراء باب المجلس:

- أريد رؤية العروس يا عم.
- في شرعنا لا يوجد مثل هذا الكلام.
- بل موجود في الشرع والدين يا عم وفي سنة الرسول النظرة الشرعية مُجازة.
- لِمَاذا تريد رؤيتها؟
- أخشى أن تكون سمراء البشرة كما هو معروف عن نساء الحديدة.

في الأخير وافق سعد. طلب من أماني ارتداء ثوب طويل بكُمين واسعين

وغطاء على شعرها، على أن تكون النظرة الشرعية في المطبخ. وقفت أماني عند المغسلة ودخل طه من باب المطبخ. نظر إلى وجهها فاطمأن قلبه وارتفع صوته فرحًا:

"ما شاء الله، ما شاء الله."

مضت أربعة أشهر وإذا بعامر يزورهم ونهى كعادتها تسترق السمع:

- نُريد إقامة العُرس يا سعد.
- مثلما تريد.
- هذا المهر المُتفق عليه، مائتان وخمسون ألفًا.
- هذا المهر، باقي مصاريف المنزل؟
- لا تقلق، سأعود وأرسلها لكم، احسب من الآن أسبوعين وفي الثالث سيكون حفل العُرس.

خرج سعد للتسوق مع أماني وليلى وجميلة ونهى. اخترن لها ما يُناسب وما لا يُناسب، كن يخاطبنها، لكن عقل أماني كان في وادٍ آخر أو في المكان الذي ستحل فيه والناس والحياة التي ستنتقل إليها. أجبرها سعد على الزواج. لم يكن هكذا عندما كانوا في السعودية. تغير سعد، كيف كان! وإلى أين صار! وقفز إلى رأسها سؤال:

"هل الفقر يُغير النفوس مثلما يغيرها المال؟"

لم يكن في سائر البلاد رجل يُحب أولاده مثل سعد. كان يقدمهم على نفسه،

ولا ينام إلا بعد أن يتأكد أنهم تناولوا وجبة العشاء وبعد أن تحكي لهم تحية قصة قبل النوم. كان الأمان يحتضنهم والخوف لا يعرف طريقًا إلى قلوبهم. لكن من يرى سعدًا اليوم لن يُصدق أنه ترك أولاده يضيعون من بين يديه. تركوا المدارس. تمر أيام لا يراهم في المنزل ولا يسأل عنهم وكأنهم لا يعنون له شيئًا. يرمي بناته لأول خاطب يطرق الباب دون حتى أن يسأل عنه أو يأخذ موافقتهن. وتحية؟ فكرت كثيرًا أماني في والدتها. هل الاضطهاد الذي تعرضت له في صِغرها جعلها خاضعة الآن فلا تبدي رأيها في أي شيء يقوله سعد! هل تعنيف والدها وإخوتها لها جعلها تخاف الرجال ولا تخالفهم! وهل ما يحدث في الطفولة يؤثر على المرء وهو كبير؟ قطع حبل تفكيرها سؤال إحدى النساء:

- إلى أين ستتزوج عروستكم؟

تركن الإجابة لجميلة:

إلى حجة.

شهقت المرأة والتفتت بقية النساء مصدومات. وتوالت عليها الأسئلة:

- قلوبهم قاسية مثل طبيعتهم الجبلية.
- ألم تسمعي عن الرجل الذي قتل زوجته الشهر الماضي؟
- كيف قبِل والدك أن يزوجك لتلك المنطقة؟ هل يريد التخلص منكِ؟

سدت أذنيها فأخرجتها جميلة فورًا من المحل بعد أن دافعت عن أسرة العريس بقولها إنهم مختلفون وليس كل ما يُقال عن سكان تلك المدينة صحيح: الناس لا يتساوون. هدأت من روع أماني بقولها إن النساء دائمًا يثرثرن بِمَا لا يفقهن، ويدَّعين معرفة كل شيء. ثم همست في أذنها كما همست من قبل في أذن منار وليلى.

انتهى الأسبوع الأول والثاني وعامر لا يجيب على اتصالات سعد، والمنزل مكتظ بالضيوف، وسعد لا يملك المال لتغطية المصاريف التي اتفق بشأنها مع عامر. لم يكن أمامه غير بيع جزء من ذهب أماني لتغطية مصاريف المنزل. أخيرًا رد عامر على اتصالات سعد وتعذر بنسيانه موعد العُرس.

وبينما صوت الأغاني يطغى على الأصوات، كانت النساء تتهامسن فيما يجب وما لا يجب. وبعد منتصف الليل انتهت الحفلة وغادر المدعوون. لمحت جميلة الضيق على وجه أماني، فسألتها:

- ما بكِ؟

- كل هذا يحدث وتسألين ما بي! لم أخرج من بيت أبي بعد وقد بدأنا ببيع ذهبي، ويتحجج بأنه نسي موعد الزواج! رأيتِ بنفسكِ كيف يتشاجر الولد مع أبيه في منزلنا فهل هذا شيء طبيعي؟ خائفة يا جميلة، خائفة من القادم.

- وكلي أمركِ لله.

فجرًا، والطبول تدق في قلب أماني ورأسها، وهم يخرجونها من البيت برفقة جميلة وليلى وأخوالها، إخوة أمها تحية، والألعاب النارية تُوقظ من لم يستيقظ بعد من النائمين. نظرت أماني نظرة أخيرة إلى بيتهم. كانت نهى وصديقاتها على السطح وتحية تطل من نافذة غرفتها مع لول. اختلطت عليها المشاعر وخانتها دموعها وعقلها يهذي:

"ماذا لو هربتُ الآن وتركت كل هذه المعمعة؟"

دخلت السيارة المُبهرجة بزينة حمراء، جلست إلى جانبها ليلى وجميلة. لم يُودعها والدها، ولم تُقبل هي يده ولا نظرت في عينيه. فقط صمَّت أذنيها عن الأصوات من حولها، أغلقت عينيها وأسندت رأسها على مقعد السيارة واستسلمت للنوم، ملجأ الهاربين والضعفاء.

❊ ❊ ❊

أيُهما أقوى

رائحة الفقر؟

أم

رائحة القهر؟

كلاهما بثلاثة أحرف.

"دُعاء"

❊ ❊ ❊

١٥

بدأت المفاجآت تنهال على رأسها منذ لحظة نزولها من السيارة.

في الطريق الترابية والصخرية تعثرت ثلاث مرات حتى انكسر كعب حذائها الأبيض. وهذا ما حصل أيضًا لجميلة وليلى فاضطررن لخلع أحذيتهن والمشي حافيات. كانوا قد حدثوها عن مدينة حجة، لكنهم لم يقولوا لها إنها حجة القرية لا المدينة، ولا أن الطريق إليها شاقة ومتعبة. كانت هذه أول مرة في حياتها تتسلق فيها جبلًا، وأول مرة ينكسر فيها كعب حذائها. ثلاثتهن تطلعن بفضول إلى البيوت القديمة التي تبدو أنها معرضة للانهيار في أية لحظة. تساءلن إن كان هناك من يسكن فيها رغم مساحتها الصغيرة، وتعجبن كيف للشمس أن تتسلل من خلال نوافذها الصغيرة. مرت أماني بجانب أحد المنازل ودفعت الجدار بيدها بقوة لتتأكد أنه لن يقع. وصلوا إلى المنزل المنشود الذي يشبه المنازل الأخرى. صرخ الرجال:

"العروسة أول من تدخل."

صعدت الدرجات الأربع، ورأت طه بعمامته وثوبه الأبيض والسيف الذهبي مُلقى على الأرض أمام باب المنزل. جلست والتقطت السيف وناولته إياه.

ضحكت النساء وهن يشاهدن من الأعلى، وابتسم الرجال، بينما أماني لا تعرف سبب الضحك المفاجئ. كانت النساء يزغردن و "المُزيِّنة" تغني

بكلام لم تفهمه النساء القادمات من مدينة الحُديدة. تعثرت أماني على الدرج، وقبل أن يرتطم رأسها بالأرض أمسكت بها النساء. الدرجات صغيرة وملساء ولم تستطع أماني وضع قدمها عليها. ازدحمت النساء حولها ولم يتركن مجالًا لها للتنفس. لم يكن يظهر منهن سوى أَعيُن تتصبغ بكحل أسود. أدخلنها إحدى الغرف وأول عبارة نطقتها جميلة:

"عطشانة أبغي مُوية."

تطلعت النساء في وجهها وكأنها أجنبية، عرفت أنهن لم يفهمن فوضحت قصدها وهي تشير بيدها: "ماء."

جاءت حسناء برفقة هناء ورغد لتخبرن أماني أن ترتدي الفستان الأبيض استعدادًا لدخول طه. بعد أن ساعدتها جميلة وليلى على ارتدائه، دخلت غرفة تغص بالنساء. جلست أماني على الكرسي الأيمن. لم تتمكن من الرؤية بوضوح بسبب الطرحة البيضاء الشفافة، ولم تدرك أن طه قد دخل الغرفة إلا حين علت زغاريد النساء. كانت رائحة الفل تفوح منه. وضع السيف جانبًا، ثم نزع عقد الفل من عنقه ووضعه حول عنق أماني وسط زغاريد النساء. وضع يده على رأس أماني فصمتت النساء، وقبل أن يرفع الطرحة عن وجهها، أخرج من جيبه مبلغًا من المال ووضعه في يدها. عرفت لاحقًا أن ذلك المبلغ يعرف بـ "حق الفتشة"، وهو تقليد محلي واجب؛ لا يمكن رفع الطرحة من دونه. وُضِع أمامهما كأس عصير، بدا من لونه أنه برتقال. أمسك طه الكأس بيد وبالأخرى رفع ذقن أماني ليُسقيها العصير، وحين جاء دورها انسكب العصير

على ثوبه الأبيض. لم تتمالك النساء أنفسهن من الضحك، وهرعت بعضهن لتقديم المناديل له، وفي تلك اللحظة أعلنت حسناء وقت الغداء. خرج طه فخلعت أماني الفستان، بينما كانت المائدة على الأرض مفروشة بأطباقٍ متنوعة بدت غريبة على نساء الحُديدة.

"عصيدة، هريش، معصوبة..." بدأت حسناء بتعداد الأطباق واحدًا تلو الآخر، تشرح مكوناتها وطريقة تقديمها بإسهاب، بينما كانت بعض الحاضرات يقاطعنها أحيانًا لإضافة وصفاتهن الخاصة في التحضير. لكن رغم الحماس وتنوع الأطباق، لم تتناول نساء الحديدة في النهاية سوى طبق "الكبسة" التي وصفته جميلة ببساطة قائلة:

"نحن نأكل أرزًا مع الدجاج."

أتاها طه ليلًا يطلب حقه الشرعي. كانت تفهم وتعي تمامًا ما يُريد، لكنها لم تكن تطيقه. اقترب منها فقامت بدفعه:

- أنا قلت لأبوك أني لا أُريدك.
- وما شأني أنا، هذا حقي.
- لا حق لك عندي.

تمالك طه نفسه، وكبح رغبته في أن يُكمل ما بدأ، فاكتفى بأن ضرب الجدار بيده في غيظٍ مكتوم. ثم خرج من الغرفة، وقد تجمعت في صدره خيبةٌ وغضبٌ لم يعرف كيف يصرفهما. طلب الحديث مع ليلى، التي لم تحتج إلى شرح

طويل لتفهم ما حدث. كانت نظراته كافية. تنهدت وأومأت برأسها، ثم عادت إلى الغرفة وعاتبت أماني، قائلة:

- هل هذا هو ما قالته لكِ جميلة؟
- لا.
- ما بكِ إذًا؟ هذا نصيبُكِ، كوني واقعية.

وأصبحت واقعية، واقتنعت غصبًا عنها بحياتها الجديدة. لم يكن سهلًا عليها أن تنتقل من حياةٍ عاشتها لسبعة عشر عامًا إلى أخرى لا تعرف كيف ستتأقلم معها وكم ستدوم. كان التأقلم صعبًا، لا سيما مع اختلاف لهجتهم وطريقة تفكيرهم. لطالما اعتقدت أن عائلتها فقيرة، لكنها اكتشفت هنا فقرًا أشد، وأن القرويين- رغم امتلاكهم مقومات الثراء- يعيشون في بيئة وصفتها في قرارة نفسها بالرجعية. أكثر ما حيرها هو كره عامر لطه، وخلافه الدائم مع حسناء، وكذلك طعامهم الذي لم تستسغه في البداية، لكن حين لسعها الجوع تناولت معهم طبق الفتة بالحُلبة.

تذكرت أماني أمها، تحية، وطريقتها في إعداد الفتة بالحليب، وأحيانًا بالعسل. لم يخطر في بالها يومًا أن الفتة يمكن أن تؤكل بالحُلبة. لم تكن أماني تعرف طهو أي شيء، فتكفلت عمتها حسناء بتعليمها شؤون المطبخ منذ اليوم الثاني لزواجها. استدرجتها إلى المطبخ بحجة مراقبة الفتيات وهن يطهين، ثم بدأت تكلفها بأعمال بسيطة، مثل: جلب الماء من البركة على رأسها. ولم ينتهِ الشهر حتى كانت يدا أماني البيضاوان مليئتين بالحروق بسبب الخبز في

التنور. وبعد شهر آخر بدأ شعرها يتساقط من جذوره ويتقصف، وظهرت على وجهها وجسدها بقع وطفح جلدي، بسبب ماء البركة المالح والملوث، كما خسرت عشرة كيلوغرامات من وزنها.

لم تعدْ أماني كما كانت. لو شاهدها أحد من معارفها السابقين لما عرفها. كأن أحدهم امتص دمها وتركها جلدًا على عظم. تغير لون بشرتها، وخفت بريق عينيها، وانطفأ شغفها، وضعفت قدرتها على المجادلة، وتراجعت جرأتها في إبداء الرأي. صارت تتنازل عن كل شيء، دون أن تنتبه حتى لذلك. وبعد عام واحد من زواجها، انتهى ذهبها كله. كان طه يأتيها كل مرة بحجة مختلفة، يسمعها كلاما معسولًا ويفرش لها الأرض وردًا، وكانت هي تصدقه بقلب أنثى ساذجة وعقل لم يُعط فرصة للنضج. لم تكمل دراستها الثانوية إلا بعد معركة طويلة، وبعد أن تدخل أخوها نزار في الأمر، رغم اعتراض عمتها حسناء، التي كانت ترى ألا فائدة من تعليم المرأة، وأن بيتها وزوجها وأولادها هم مستقبلها الوحيد. وحين أنهت أماني دراستها بعد سنتين بدأ قلق حسناء وطه من تأخر حملها. فكان ذلك ذريعة لطه ليأخذ ذهب أختيه، هناء ورغد، الذي أهداه لهما عمهما عبد الواحد. باعه بحجة علاج أماني، فمرتبه لا يكفي للسفر للمدينة ولتكاليف الأطباء. اصطحبها طه إلى منزل عمه. كانت المرة الأولى التي تخرج فيها أماني من القرية فشعرت ببعض الحرية، وحين انفردت بخاتمة حكت لها ماضي عامر وأسرته وحاضرهم ثم سألت أماني:

- كيف لوالدكِ أن يزوجكِ لأُناس مثلهم! حسناء طيبة القلب، لكنها تظل تحب ابنها حتى وهي تعرف أنه خبيث مثل والده. الأفضل ألا تنجبي فتقاسين من العذاب نفسه الذي قاسته حسناء. طه لا يجب أن يكون أبًا.

مرت الأيام، والحياة تمضي بأماني بين حنان وقسوة. تستسلم أحيانًا وتقاوم أحيانًا أخرى، وتصارع شر القدر بالدُعاء، إلى أن أوصلتها الدُنيا إلى قاعة محكمة الحُديدة. وقفت أماني بين يدي القاضي وكان أخوها نزار إلى جوارها يساندها. سألها القاضي بصوت هادئ وحاسم:

- السيدة أماني سعد الحاكمي، هل تطلبين الطلاق من زوجكِ طه عامر المعدني؟

أجابت أماني بقوة وشجاعة:

"نعم، أريد خلعه."

أشار القاضي لهما بالجلوس، أماني عن يمينه، وطه عن يساره. ردد عليهما ما تعوَّد أن يقوله قبل كل قضية خُلع:

"الزواج، يا أبنائي، والحُب والصداقة وسائر العلاقات التي شرعها الله تعالى، هي روابط عظيمة تسمو بالإنسان وترتقي به نحو الأفضل، لكنها في جوهرها تحتاج إلى وعي عميق وإدراك حقيقي لمعناها ولمغزى تشريع الله لها. والزواج على وجه الخصوص، من

أهم تلك العلاقات إذ لا يكتمل إلا بآدم وحواء. فكل منهما ناقص بمفرده، وباجتماعهما تتحقق الحكمة الإلهية في عمارة الأرض. ونحن، كبشر، لا نخلو من العيوب ولا من الأخطاء، لكن بالحب والتفاهم يُمكن أن نكمل بعضنا، ونرتقي معًا."

قاطعته أماني:

- هناك عيوب تُغتفر وعيوب تستحيل معها الحياة.

قال طه:

- لن أُطلق يا حضرة القاضي، أنا متمسك بها.

واصل القاضي حديثه:

"بينكما ابن وابنة وعِشرة ثمان سنوات، ولن يدفع ثمن اختياركما الخاطئ سواهما. ما ذنبهما إن كان أبوهما وأمهما قد أساءا الاختيار ولا يصلحان لتحمل مسؤولية الأُسرة؟"

وقف القاضي ليصرخ بانفعال:

"أنتما لا تعرفان معني المسؤولية. تنجبان أطفالًا سيكونون عرضة للتشتت الفكري والضياع، وسيعيدون إنتاج هذا الخلل في أجيال قادمة، تائهة، وعاجزة عن الإسهام في بناء مجتمع سليم."

جلس القاضي على كرسيه يمسح عرق جبينه بمنديل أخرجه من جيب معطفه. ثم التفت إلى طه وسأله:

"أستاذ طه، نحتاج إلى وثيقتي ميلاد طفليك."

ضحكت أماني وقالت:

- الأستاذ المثقف لم يستخرج لطفليه حتى الآن وثائق ميلاد، وللأسف لم يعد لدي ذهب لأبيعه.

قال طه:

- هل تنفع شهادة التطعيم؟

أخذ القاضي منه الشهادتين وسجل الاسمين: دعاء طه عامر المعدني، جمال طه عامر المعدني. ثم ختم الجلسة بقوله:

"تؤجل القضية إلى تاريخ ٣٠/ ٠٣/ ٢٠٠٥م."

❋ ❋ ❋

١٦

صنعاء ٢٠٣٠م

ليس في صنعاء فقط، بل حجة وتعز وشبوة ومأرب وعدن وحضرموت... من شمال اليمن إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه. وليس في اليمن فقط، بل في السعودية ومصر وسوريا والمغرب... الجميع يتحدثون عن الجريمة التي هزت العالم العربي واقتحمت كل منزل وكل حاسوب وكل جهاز إلكتروني. تتناقل المواقع والمنصات مقطع فيديو بثته الإعلامية "نرجس فؤاد مشعل" تُظهر فيه مسرح الجريمة وأدواتها مؤكدة أن المتهمة قضت أسبوعًا كاملًا مع المجني عليه قبل ارتكاب الفعل الصادم.

تحولت الجريمة إلى قضية رأي عام، وانقسم الناس حولها إلى أغلبية تطالب بإعدام الفتاة على الملأ، ثم حرقها حتى تصير رمادًا تذروه الرياح؛ فمثلها- كما علَّق أحدهم- لا يجوز دفنها في مقابر المسلمين، كونها ارتكبت أكبر الكبائر، ولتكون عبرة لمن تسول له نفسه اقتراف جريمة مماثلة. في المقابل ظهرت أقلية تدافع عن الفتاة معتبرين أن خلف هذا العنف الوحشي سببًا قويًا ووجيهًا. أصبحت الجريمة مادة حاضرة على كل طاولة نقاش، ووجبة دسمة لثرثرة المجالس النسائية.

وصلت سيارة الشرطة تتقدمها سيارتان وتتبعها سيارتان، وقبل أن تترجل

المتهمة كان رجال الأمن قدر خرجوا مشهرين أسلحتهم لردع الحشود ومنعهم من الاقتراب. خرجت المتهمة كاشفة وجهها، كما طلبت، فتحولت الكاميرات تلقائيًا من تصوير بوابة المحكمة إلى وجه المتهمة الذي كان يخلو من ملامح الإجرام أو العنف، بل يفيض جمالًا ونعومة وهدوءًا أنوثيًا، وهذا ما صدم الجميع فهمس البعض: "ياما تحت السواهي دواهي!"

سارت رافعةً رأسها، بعينين ثابتتين وواثقتين، كأنما تتقدم لاستلام جائزةً. يداها مقيدتان والشرطة النسائية تحيط بها من الجانبين. دخلت قاعة المحكمة فعادت الكاميرات إلى وجوه الإعلاميين والمحامين الذين راح كل منهم يسرد ويحلل بحسب ضميره المهني وخبرته القانونية.

وقفت المتهمة خلف القضبان وحيدة. دخلت أمها بعينين حمراوين ذابلتين، كأنها تسير على قدمين معلقتين في السماء وبروحٍ مدفونة تحت الأنقاض، وجسدٍ يتمنى الفناء وسط ركام الحياة. تطلعت إلى القاعة من الباب، لا تعرف أين تجلس، فقادها قلبها إلى كرسي قريب من السياج الحديدي حيث تقف ابنتها. وقبل أن ترفع عينيها نحو ابنتها، دخل القاضي والمستشاران، وعلا صوت الحاجب مناديًا:

"محكمة. القضية رقم ١٢٦ لعام ٢٠٣٠م."

وقفت المحامية مُعرِّفة عن نفسها بصوت جهوري:

- المحامية شذى حامد الوليد، حاضرة عن المتهمة.

وإلى يمينها وقف رجل ببدلة رسمية وعلى صدره علم اليمن: أحمر، أبيض، أسود:

- وكيل النيابة رائد هاشم العُمري.

أشار القاضي إلى وكيل النيابة ليبدأ مرافعته.

- في يوم ٠١/٠٣/٢٠٣٠، وفي تمام الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، تلقّى مركز الشرطة اتصالًا من هاتف الجانية، تعترف فيه بجريمتها بجرأة لافتة، ومن دون أن يُظهر صوتها أي شعور بالذنب. بل طلبت من أفراد الشرطة الحضور لأخذ جثة المجني عليه. وخلال التحقيق الأوّلي، كرّرت اعترافها طوعًا، وبكامل تفاصيل الجريمة، ما يؤكد إقرارها الصريح بالذنب. وقد تم ضبط أدوات الجريمة التي استخدمتها في قتل رجلٍ مسالم، عاجز، يبلغ من العمر خمسين عامًا، مما يثبت أن الجريمة وقعت مع سبق الإصرار والترصّد. والأفظع من ذلك، أن المجني عليه ظل يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديها لمدة أربعة أيام، دون أن يرفّ لها جفن، أو تدمع لها عين، أو يدخل قلبها مقدار ذرةٍ من رحمة. فأي قلب هذا؟ وأي عقلٍ بشري يُقِرُّ ما اقترفته يداها؟ إنها، بوضوح، جريمة مكتملة الأركان.

تقدم الوكيل إلى المنصة حاملًا بيده ملفًا ووضعه أمام القاضي. وأضاف:

- سيدي القاضي، أمامكم اليوم اعترافات الجانية الكاملة، موثقة

بالصوت والصورة، إلى جانب صور موقع الجريمة، والأدوات المستخدمة فيها، وبلاغ شقيقها المسجَّل في مركز الشرطة بشأن اختفائها المفاجئ مع المجني عليه قبل أيام من ارتكاب الجريمة. كل هذه الأدلة لا تترك مجالًا للشك في تورطها الكامل، وتدل على سبق الإصرار، وتخطيطٍ مدروس لا مكان فيه لانفعالٍ عابر أو ظرفٍ طارئ. ولذلك، لا نطلب من عدالتكم سوى إنفاذ القانون وتحقيق القصاص العادل، وتطبيق شرع الله في هذه الجريمة التي تجاوزت حدود التصوّر، والتي لا ينبغي التساهل معها تحت أي ظرف، حتى لا تُفتح أبواب الفتنة، ويُشرَّع للشباب باب جهنم بمثل هذا التفكير الإجرامي الغريب عن قيمنا، والذي لم يُقدم عليه أحد من قبل. العدالة، سيدي القاضي، هي ما نرجوه من عدالتكم.

بدأت المحامية مرافعته بقولها:

- سيدي القاضي، أنا أؤيد وأؤكد كل ما ذكره وكيل النيابة، بل وأشاركه استغرابه ذاته: أي إنسان عاقل يمكن أن يُقدم على ما اقترفته يداها!

سألها القاضي:

- ماذا تقصدين يا حضرة المحامية؟
- أقصد أن موكلتي، وبالنظر إلى بشاعة ما فعلته، لا يمكن أن تكون في كامل قواها العقلية. ولذلك، أطلب من عدالة المحكمة عرضها

على لجنة الطب النفسي للتأكد من أهليتها العقلية وقت ارتكاب الجريمة، والبتّ في مسؤوليتها الجنائية. كما أرجو الإفراج عنها مؤقتًا، بكفالة مالية وضمانة تجارية، ريثما يصدر التقرير الطبي الرسمي.

صرخ الحاجب:

- الحكم بعد المداولة.

ما إن انسحب القاضي إلى غرفة مجاورة، حتى تحولت القاعة إلى ما يشبه السوق؛ أصوات تتعالى، وآراء تتباين بين من يجزم بأن القاضي سيأمر بعرضها على الطب النفسي، ومن يعتقد أنه سيحكم بإعدامها. أما أمها، فبقيت صامتة، عاجزة عن النطق، لا يشغل بالها سوى تقبيل أصابع ابنتها من وراء السياج الحديدي، فيما دموعها تخضب برقعها. وأخيرًا، نطقت الفتاة:

- أمي، لقد أَرحتُكم منه ومن شره، ووهبتُ ما تبقّى من حياتي لإخوتي، كي لا يجرّبوا ما جرّبناه.

في تلك اللحظة صرخ الحاجب مجددًا:

"محكمة."

نطق القاضي:

"حكمت المحكمة بعرض المتهمة على الطب النفسي للتأكد من سلامة قواها العقلية، تحت إشراف الدكتورة "هويدا فيصل الكامل"

وتؤجل الجلسة إلى تاريخ ١٥/ ٠٧/ ٢٠٣٠م."

ما إن سمع وكيل النيابة اسم "هويدا" حتى وقف مصدومًا ينظر إليها بغضب، وفور انتهاء الجلسة اتجه نحوها. أمسكها من رسغها مهددًا:

- هل جُننتِ؟!

ردّت بهدوء وهي ترفع يدها اليمنى لتُظهر خاتم خطوبتها:

- أترك يدي يا رائد. سأتزوج، حياتنا منتهية، كانت لديك فرصة ولم تفلح فيها.

- وأين ستودِعين المجرمة؟

- في شقتنا القديمة يا حضرة وكيل النيابة، هل يضايقك هذا؟!

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

١٧

دُعاء: مدينة حجة ٢٠٠٥ م.

لست بحاجة لعصر ذاكرتي، فالذكريات تنهال على رأسي كمطرقة تهوي على مسمار. صراخ لا يفارق رأسي، وخوف يسكن قلبي. عند اشتداد هذه الحالة يلجأ جسدي للاحتماء بالغسالة التي صارت أقرب لي من نفسي. في ذلك المنزل، الشبيه بقبو، دُفنَت طفولتي وسُلب مني الأمان، وخُلِّدَ فيه الألم والقسوة والصراخ... الصراخ ليلًا ونهارًا، في منتصف الليل أو بعد الفجر. لا تزال تلك الصور السوداء تزورني من حين لآخر كلما انفردت بذاكرتي التي تأبى النسيان. تلك الأيام تسجنني بين براثينها في ماضٍ أسود لعين وحاضر يعاني من أخطاء الماضي ويعد بمستقبل غير متصالح مع الأمل.

في تلك الليالي، كنت أتشبث بالبطانية الثقيلة وأنكمش في الفراش هربًا من الصراخ وخوفًا على نفسي. أحاول الاستعانة بالنوم لكن، اللعنة على النوم حين لا يستجيب للمضطر إذا دعاه. الصُراخ... الصُراخ المرتبط بالشِجار دائمًا؛ كلاهما يصرخ: أمي تستغيث بنا، وأبي يصرخ غضبًا منها، وأنا وجمال نلوذ بالغسالة. أحتضنه بين ذراعيّ في وقت أنا أحوج فيه إلى من يحتضنني. عيناه تبللان يديّ وعيناي تبللان شعره. ورائحة العفن المتصاعد من القبو قرب الغسالة تلفنا كغطاء. صورتهما تختفي مشوّشة، ثم تعود واضحة... كل شيء يتبدّل حسب كثافة الدموع.

يرتعش جسد جمال وحين يعلو الصراخ وأصوات التحطيم، ننكمش أكثر بجانب الغسالة، ولو أمكننا الاحتماء داخلها لفعلنا. لم يكن النوم يشفق علينا في أوقات الشِجار، ولم يرحمنا الموت من حياة كنا نترقب فيها الشِجار في أي لحظة، بل كنا نتهيأ له نفسيًا. إن لم يحدث الشِجار صباحًا أتى ظهرًا، وإن تأخر فليلًا، في منتصف الليل أو قبل الفجر. في غياب أبي كُنا نخفي كل ما يمكن استخدامه في الضرب: العصي الخشبية أو القضبان الحديدية، الأسلاك، ملاعق الطهي الكبيرة، القدور، السخانات الصغيرة، جهاز التحكم بالتلفزيون، الأحذية... كان يضربنا بأي شيء وكل شيء يجده أمامه، فإن لم يجد شيئًا فالجدران موجود وثابتة وتحت الخدمة. يرمي أجسادنا من جدار إلى جدار، وحين تبتل سراويلنا المهترئة بالبول تزداد قسوته أكثر. يضربنا ولا يريد مِنا البُكاء، وحين تحاول أمي الدفاع عنا يضربنا جميعًا، ولا يتوقف إلا حين تخور قواه. يبدأ صدره في الارتفاع والانخفاض كمن أنهى معركة شرسة فرد فيها عضلاته وفرَّغ فيها طاقته الوحشية التي لا يحسن تفريغها إلا على زوجته وابنته وابنه.

بعد كل معركة يرتدي ثوبه الأبيض وعليه الكوت الأسود، ويلف الشال البُني بعناية حول رأسه، ويختم هندامه الجميل برش العطر الثمين كما لو كان يستعد لاحتفال. يلتقط كيس القات الذي يحتوي على ما لا يقل عن سبعة أكياس. ثم يغادر ويُحكم إغلاق الباب بالقفل من الخارج كي لا تهرب أمي إلى أهلها. ما إن نسمع صوت القفل وهو يغلق حتى نهرع إلى حضن أمي

تاركين لدموعنا العنان لتعبر عن ألمنا، وصراخنا ليعبر عن كبتنا وحزننا وضعفنا وعجزنا. نبكي تعبيرًا عن العجز والقهر. كان البكاء زادنا وقوت يومنا، وهو وكيل الضعفاء. نبكي ثم ننام إلى جانب أمي التي تظل تترقب لحظة عودته، بعد منتصف الليل.

نسمعه يفتح الباب، فنتظاهر بالنوم. يشعل الأضواء فنستمر في التظاهر. يوقظنا. هو يعلم أننا مستيقظان. رائحة البول والعرق تفوح من جسدينا الصغيران، أنا وجمال. يأمرنا بالاستحمام، والماء بعد منتصف الليل يكون مُثلجًا، لكننا نخاف أن نقول له إن الماء بارد فيضربنا مجددًا. نحتضن بعضنا ونبدأ بصب الماء المُثلج ببطء على رأسينا ثم على جسدينا الدافئين. نرتجف وأسناننا تصطك ببعضها من شدة البرد، ثم نرتدي أي شيء بسرعة كي لا نتأخر عليه فيُعيد ضربنا ويعيدنا إلى عذاب الحمَّام والماء المُثلج. نجلس أمامه، أعيننا في الأرض، وأمي متربعة بجانبنا، ويدها على خدها وشعرها وعيناها المتورمتان وخدها الأحمر، كلها تروي بصمت حكاية معركة الظهيرة. يفتح كيسه الذي فرِغَ من القات ويخرج منه العصير والبسكويت ويناوله لنا. كنا نتناول العصير والبسكويت خوفًا لا جوعًا. كنا نعرف هذا الطقس جيدًا: بعد كل معركة ضرب سنأكل البسكويت والعصير، وستسامحه أمي، وسيعيد الكرة نفسها كل يومين تقريبًا.

تنهض أمي فجرًا، تشعل التنور وتمسك "المخبزة" بيدها اليمنى وباليسرى العجينة. عين على الخبز داخل التنور، وعين على ملزمة مادة الإدارة، تحفظ

وتراجع معلوماتها. تختلط الروائح في ذلك المنزل: صباحًا تفوح رائحة الأرز و"الطبيخ"، والعدس الأسود. تقطع السَّلَطة، وتعد الكُراث الأخضر من أجل الحُلبة، وتضعها في وعاء بلاستيكي. بعد انتهائها من إعداد وجبتي الإفطار والغداء معًا، توقظ والدي وتبدأ في خدمته متجنبة تذمره والمشاكل التي يفتعلها كل صباح. مرةً على فقدان الحزام الأسود ومرةً على اختفاء أزواج الجوارب، ومرةً يصرخ لأنها لا تعرف كيف تكوي البناطيل، ولا تعرف كيف تكون مثل بقية النساء. كان يتعمد إثارة المشاكل لتتأخر على المعهد الذي تذهب إليه سيرًا على قدميها وهي ترتدي عباءتها المرقعة من الأسفل. حين اشترتها أعطتها لجارتنا الخيَّاطة وطلبت منها أن تقص منها مقدار أصبع واحدة فقط، لكن لأنها كانت لاتزال تتعلم، قصت منها شبرًا. لم تصرخ أمي ولم تحتج. قالت لها:

"لا بأس. حصل خير، أعيدي خياطة القطعة فيها."

كانت أمي تذهب بعباءتها تلك دون أن تخجل من مظهرها. لم تمنعها أعين الناس من مواصلة الدراسة. ظلت ترتديها لمدة ثلاث سنوات حتى حولتها الشمس إلى اللون الأحمر. كانت تقطع الطريق مسرعة، تسابق الوقت، والخبز المحشو بالعدس الأسود في يدها. بعد مغادرة أمي إلى المعهد وأبي إلى الوظيفة، يهدأ المنزل، فنتمدد أنا وجمال أمام شاشة التلفاز وتحت رأسينا وسادة، نتابع كرتون "ماوكلي". ولأننا لا نجيد استخدام جهاز التحكم نطلب من أمي أن تفتح قناة الأطفال، ثم تُبعد جهاز التحكم عنا كي لا نعبث به أو

نقوم بفتح قناة الأخبار. ذات يوم ونحن نتابع المسلسل الكرتوني، سمعنا صوتًا غريبًا، وإذا بحشرة طنانة سوداء تدخل من نافذة الغرفة. بحركتنا التلقائية عند الخوف احتضنا بعضنا وانزوينا بجانب الغسالة. المختلف هذه المرة أننا كنا نبكي بصوت مرتفع حتى سمعتنا راعية أغنام عجوز كانت تمر بالقرب. اقتربت من النافذة ولما رأت الحشرة ضحكت وقالت:

"لا تخافا، لن تفعل بكما شيئًا."

كانت ثقتنا بأنفسنا مزعزعة، ويتحكم بنا الخوف، فلم نصدقها، رغم أننا نعرفها. تشبثنا بالغسالة أكثر، وأسعفنا النوم هذه المرة. نمنا هربًا وخوفًا من حشرة، بينما لم نكن نستطيع النوم هربًا من بطش والدي.

كان صوت قدمي أمي مميزًا، تنزل من الدرج فيعزف قلبانا نغمات الفرح. تفتح القفل فتغمرنا الابتسامة، تفتح الباب وتدخل فنحتمي بحضنها وندس أنفينا في ثوبها لنستنشق رائحتها.

أمي تسرق. تسرق من جيب أبي عملات معدنية صغيرة. مرةً من فئة عشرة ريالات، ومرةً من فئة العشرين، وأحيانًا تتجرأ فتأخذ خمسين ريالًا لتشتري لنا حلوى الكوكا كولا. حلوى لها مذاق وشكل الكولا، وحجمها لا يتعدَى رأس الأصبع. تشتري أحيانًا كرات الشوكولاتة، كرات صغيرة مختلفة الألوان: بعضها أزرق وأبيض، بعضها أحمر وأبيض، والبعض الآخر أسود وأبيض، بأشكال سداسية، تبدو مثل كرة حقيقة إلا أن حجمها بحجم حبة الفول.

لم تصعد يومًا حافلة لتقي نفسها من حرارة الشمس، ولم تشترِ لها يومًا ساندويتشًا لتُسكت جوعها، ولم يكن بوسعها توفير المال لتشتري لها حذاءً. عندما يتمزق حذاؤها، تخيطه مرة واثنتين وثلاثًا، إلى أن يرفض الإسكافي خياطته بسبب اهترائه ودمار قاعدته. تعود إلى المنزل قبل انتهاء المحاضرات لتجهز الطعام الذي كانت قد بدأت تحضيره منذ الفجر. تخلع عباءتها المرقعة وتسخن الطعام وتفرش المائدة استعدادًا لقدوم ربّ البيت الذي يأتي ويرمي كل قطعة من ملابسه في زاوية ثم يأكل بنهم وعجلة والعرق يتفصد من جبينه. في تلك الأثناء تقوم أمي بكي ثوبه الأبيض وشاله البني، وبعد أن يغادر نفتح التلفاز. وبعد أن تصلي أمي صلاء الظهر نتناول الغداء سويًا، ثم تأخذ أمي قيلولة حتى موعد أذان العصر، لتبدأ في مذاكرة دروسها.

كان والدي ينتقي الأيام التي يفتعل فيها شِجارًا بعناية فائقة، بالتحديد أيام امتحانات أمي؛ كي لا تذاكر فترسب فتكون لديه حُجة لمنعها من الدراسة. كانت أمي تسهر الليل بجانبه، تغفو فيصرخ في وجهها ويتهمها بإهماله. وفي الصباح، يتعمد تأخيرها، بأن يتأخر هو في الاستيقاظ. ورغم ذلك، درست ونجحت، ولم ترسب في أية مادة دراسية، وتخرجت بالعباءة المرقعة وخبز العدس ورائحة البصل.

❀ ❀ ❀

١٨

تزوجت أمي أماني وهي في المرحلة الثانوية، ولم تنجبني إلا بعد ثلاث سنوات من العلاج، وبعد أن دار بها أبي طه على أغلب مستشفيات المحافظة، والأطباء والعيادات النسائية، وبعد أن تحولت أمي إلى حقل تجارب لجدتي حسناء التي أجبرتها على تناول أعشاب يُعتقد أنها تساعد على الحمل. كان أبي يرغب في إنجاب أبناء بدافع فطري اجتماعي، لكنه لم يكن يفكر فيما إذا كانت لديه القدرة والاستعداد التام لتحمل مسؤولية أن يكون أبًا. كل ما كان يرغب فيه هو الأطفال ليثبت للناس أنه رجل وبأن زوجته تحبه.

عندما قدمت أمي إلى القرية، كانت جدتي حسناء تخاف عليها من دهاء نساء القرية، خشيت أن يلوثن عقلها الصغير الفارغ بكلام عنهم، فكانت لا تسمح لها بالخروج إلا وعمتي هناء تحرسها عن اليمين وعمتي رغد عن اليسار. كانتا تمليان عليها ما ينبغي أن تفعله وما لا ينبغي، وكانت نساء القرية يتندرن همسًا بأن لأمي "منكرًا ونكيرًا" ظاهرين للعيان بأمر من جدتي حسناء. كان لدى أمي قائمة بمن تتحدث إليهم ومن تخاصم، وكانت تسمع وتطيع. وحين أنجبتني فرح الجميع، ومن شدة فرح حسناء أرغمت أمي على تناول مائة وخمسين بيضة بلدية، في فترة النفاس، وكانت النتيجة أن أُسعفت إلى المستشفى لإصابتها بتسمم حاد.

بعد مولدي بثلاث سنوات، حملت أمي بجمال، وبدأ وعيها بالنضج، فتحت

عينيها على أشياء كثيرة. أدركت أن والدي قد باع كل ذهبها ليصرفه على القات، ولم يكتفِ بذهبها فقط، بل أخذ ذهب جدتي حسناء وعمتَي رغد وهناء. تشاجر مع جدتي يوم باع خاتمها ذي المفتاح الذهبي. قالت يومها: "إنه هدية من عبد الواحد"، فأوهمها أنه سيرهنه فقط، وكالعادة خدعها وباعه.

تخاصمت أمي مع أبي من أجل دراستها، وسافرت إلى الحديدة لتشتكيه لخالي نزار، فأرغمه على ترك القرية ونقل وظيفته إلى المدينة من أجل دراسة أمي. من يومها نقمت جدتي حسناء على أمي. قالت إنها أبعدت ابنها عنها، وأن النساء هنّ من سممن عقلها وأعمين بصيرتها، وبأنها ستقصر في حق زوجها وطفليها بسبب الدراسة. لكن أمي صممت على موقفها. باعت دبلة خطوبتها بخمسة آلاف ريال، واشترت بالمبلغ ملازم المعهد للسنوات الثلاث كاملة. ومن أجل دراستها غضت نظرها عن حقوقها في المصروف كزوجة. أغلب زميلاتها متزوجات ومصروفهن ما لا يقل عن خمسمائة ريال، يغيرن عباءاتهن كل شهر لتتناسق مع الحقائب والأحذية، بينما لم تكن تمتلك أمي سوى حقيبة واحدة فارغة إلا من خمسين ريالًا معدنية كانت تأخذها من جيب أبي دون أن يشعر.

كانت ملامح والدتي تثير الغرابة؛ فوجهها وجمالها وطريقة حديثها ورقي تعاملها تدل على أنثى نشأت في مجتمع راق وثري، لكن ما يظهر على ملابسها وحقيبتها يدل على الفقر وقلة الحيلة. في بداية زواجها كانت

تحاصرها جدتي حسناء في الخروج كي لا يسمم أحد رأسها، وبعد انتقالها للمدينة، اتبع والدي النهج نفسه، فكان يمنع أمي من الخروج والاجتماع بالنساء في أوقات العصر؛ خوفًا من أن يخبرنها بموعد استلام المرتبات الشهرية للتربويين أمثال أبي، أو أن تعلم بوجود حوافز وإكراميات فتطالبه بجزء من راتبه الشهري البالغ أربعين ألف ريال. لم تكن تعرف أنه يستلم المرتب إلا حين يغيب عن المنزل لمدة ثلاثة إلى أربعة أيام، يقضيها في العاصمة صنعاء ويصرف خلالها أغلب راتبه بحجة أنه انحرم كثيرًا في طفولته ولم يعش حياته. لم يكن يُبقي من راتبه سوى القليل الذي لا يفي بقوتنا اليومي من القمح والأرز والسكر والزيت. كان يتعلل بأن هناك خصميات من راتبه وأنه يسافر إلى صنعاء للبحث عن عمل إضافي.

لم نكن نعرف مذاق العصير والبسكويت إلا بعد أن يضربنا. ولم يكن يُقبِلُنا إلا حين يرى آثار دموعنا ورعشة خوفنا. في غيابه كانت أمي تُعِدُ لنا "كيكة" فنتناولها بنهم أنا وجمال، ونشعر أننا امتلكنا الدنيا بِمَا فيها. ذات يوم أهدتنا جارتنا "حنان" كيكة صنعتها بنفسها، يعلوها طبقة من الشوكولاتة مثل التي كان يشتريها أبي أحيانًا. تطلعنا فيها باستغراب. كانت تلك أول مرة نكتشف فيها أنه يمكن صنع كيكة في البيت مغطاة بطبقة من الشوكولاتة. تناولناها كما لو أننا لم نتذوق كيكة من قبل. لعقنا الصحن حتى جعلناه يلمع، ومنذ ذلك اليوم لم تعد كيكة أمي ترضينا. في صباح أحد الأيام ذهبت خلسة إلى بيت جارتنا حنان، ففتحت لي ابنتها الباب. كانت تمقتني بلا سبب. قالت شيئًا لم

أُلقِ له بالًا، ودخلت لأحتضن الخالة حنان فور رؤيتي لها. بادلتني الحضن وقبلت خديّ وقالت:

- حبيبتي دُعاء، ماذا تريدين؟

نظرت إليها بخجل فشجعتني:

- قولي وسيكون سرًا بيننا.

- أريد كيكة بالشوكولاتة.

- حاضر. سأُعد لكِ ألذ كيكة.

عدت إلى البيت قبل أن يكتشف أحد غيابي، وكان قد حان وقت تسريح شعري. كنت أكره شعري وتسريحه. وددتُ لو أحرقه وأتخلص منه. تقول أمي إن شعري يشبه شعر جدتي حسناء: خشن. فصرت أكره نقطة الشبه هذه. شعري كثيف ومجعد وطويل ولونه ليس أسود تمامًا ولا بنيًا، ووقت تسريحه أشبه بجلسة تعذيب. ينغرز المشط في شعري ولا يخرج منه إلا وقد نفرت دموعي الصامتة خوفًا من أن أبكي بصوت مسموع فيستيقظ والدي:

- آآآآي أمي أنتِ تؤلمينني.

- تحملي يا صغيرتي، بقي القليل فقط.

- أمي، ادهني شعري بالزيت لكيلا يؤلمني.

- لا يوجد لدينا زيت.

- ضعي السمن بدلًا منه.

تحتضنني أمي والدموع على وجنتيها، فيحدق بي جمال بحنق؛ لأني جعلت أمي تبكي. تمسح دموعها ومع أذان الظهر توقظ والدي. لا أعرف بالضبط ما كان بينه وبين الصلاة! "صلّ يا طه"! يستيقظ متثائبًا ثم يعود للنوم ولا يستيقظ مجددًا إلا حين يوقظه الجوع. يتناول الوجبة نفسها كل يوم، وحين يود افتعال مشكلةٍ ينتقد الطعام: أنتِ لا تعرفين الطهو مثل بقية النساء، لكن أنا المخطئ، تزوجتك بينما كانت النساء في انتظار طرقي لأبوابهن. يومها لم يكن مزاجه يسمح له بسماع صوت أمي توقظه للصلاة، لكنه استيقظ ولم يُصلِّ، وأمرها بتقديم الغداء. ذاق الأرز فصرخ:

"ما هذا الأرز! نيئ وناقص ملح."

يتطاير الأرز في أرجاء الغرفة ويعلوا صوته، بينما قلوبنا تدق بقوة، وأمي تبكي، وبحركتنا التلقائية نحتمي بالغسالة ودموعنا تبلل خدودنا. في تلك اللحظات أدعو: "يا رب، الله يحفظك، خلِّي بابا يموت، الله يحفظك." الأواني تصرخ وأمي تصرخ، ولو كان بالإمكان لصرخت الجدران وتحدثت عن الظُلم الذي يصيبنا، واشتكت أبي لأقرب محكمة، بعد أن ضاقت ذرعًا بِما يدور في ذلك المنزل. طُرق الباب فهدأ أبي. عدَّل قميصه وفرد ابتسامته، وبحركةٍ سريعةٍ مشط شعره. فتح الباب وكانت ابنة الخالة حنان:

- تفضل يا عم، هذه الكيكة لكم.

- شكرًا، شكرًا لكم لا داعي لهذا.

أخذها منها وأغلق الباب وتطلع إليَّ بعينين حمراوين وقد تحوَّل وجهه في

لحظة إلى كتلة من الغضب:

- من طلب منهم أن يحضروا لنا كيكة؟

أجبته والحروف تخطئ مخارجها:

"لا.. لا أعرف!"

طار الصحن سريعًا واستقر على وجهي ووجه جمال. سحبني من شعري بينما كان صوتي يعلو بالتوسل والرجاء والأيمان المعظمة بأني لم أطلب من جارتنا شيئًا، لكن لا حياة لمن تنادي. بعدها كرهت كيكة الشكولاتة، وكرهت شعري المجعد، وأسرفت في كره أبي أكثر.

❊ ❊ ❊

١٩

- عندما أكبر سأعذبه وسأقتله.

وضع جمال يده على فمي قبل أن أنهي حديثي.

- اصمتي، قد لا يزال موجودًا.

- أنا أكرهه ولا أخاف منه.

لاذت أمي بالصمت، فتحت الحقائب وسلمت مفتاح المنزل لجارتنا حنان. عندما فتحت لنا الباب دست في يد أمي مبلغًا من المال وقالت:

- كان الله في عونكِ، أنتما لا تليقان ببعضكما أبدًا، سامح الله من كان السبب في زواجكما وحفِظَ الأبناء من شر العُقد النفسية.

أجابتها أمي وآثار الحرب لا تزال في وجهها:

- بل لا سامح الله من كان له يد في هذا الزواج.

جمعت أمي أكبر قدرٍ من الملابس في حقيبة عُرسها السوداء المهترئة من كثرة سفرها من حجة إلى الحديدة؛ بسبب خصامهما المتكرر. في محطة السيارات سمعتها تقول للرجل الذي لم يكن ينظر إلى عينيها:

- إلى الحديدة، ولدَيّ هما محرمي.

لم يسعنا الفرح عند سماعنا كلمة "الحديدة". كان الفارق شاسعًا بين منزل أمي ومنزل أبي. كلما رأيت منزل أبي في القرية أشعر أنه سينهار في أية لحظة،

كما أن لون جدرانه الأبيض من الداخل يعلق دائمًا بملابسي، وغالبًا ما أسقط من درجات سلمه الصغيرة الملساء. جدي عامر يصرخ دائمًا، تمامًا كوالدي. الجميع يخافونه، لكن حين يحضر أبي يصمت جدي خوفًا منه. يصرخ جدي فيرد عليه أبي بالصراخ. كنت أستغرب علاقتهما الغريبة؛ لا تحكمها علاقة الأب بابنه، بل علاقة عدو بعدو. يكرهان بعضهما ولا ينظران في عيني بعضهما مباشرةً، ولا يجتمعان على طاولة واحدة إلا وتحدث مشكلة من لا شيء. حينها لا يتدخل بينهما أحد؛ يصمت الجميع، فإن بدأت في البكاء يكون ذلك عذرًا لأمي لتنسحب إلى غرفتها. جدتي حسناء تحبني كثيرًا، ودائمًا ما تحميني من ضرب أبي، لكنه كان يجرني من خلفها، من شعري المجعد ويقذف بي إلى الجدار فتدعو عليه بأن يكسر الله يديه وأن يحرق قلبه القاسي.

لم أعرف عمي علي، ولا عمي وليد. كلاهما في الجيش، وكانا يخشيان العودة إلى المنزل كي لا يطردهما جدي، فيصغران في أعين الناس، فكان الاختفاء هو الخيار الأنسب لهما. أما عمتي هناء وعمتي رغد فقد لجأتا إلى الدراسة الجامعية، طلبًا لوظيفة قد تجلب لهما المال، وهربًا من رؤية وجه أبي وجدي لأطول فترةٍ ممكنة. لكن أبي منعهما من إكمال دراستهما بحجة أن عائلتنا محافظة ولا يليق بالفتاة أن تخرج وتتحدث مع الرجال وتختلط بهم، حتى لو كانت تدرس الطب. قبّلتا قدميه وبكتا بحرقة وارتفع صوت شهقاتهما، لكن لم يلن قلبه ولم يخضع.

عائلة أمي مختلفة تمامًا. الفارق بين العائلتين كالفارق بين الليل والنهار، والخير والشر. منزل أمي جميل وكبير وواسع، به مراوح في الأسقف ومكيفات مثبتة في الجدار تنشر الهواء البارد. لم يحدث يومًا أن سقطت من الدرج أو تلطخت ملابسي بالجدران. لا أستيقظ فيه على صراخ، ولا تحدث مشكلة أثناء تناول الطعام. المنزل هادئ، وجدي سعد وجدتي تحية على وِفاق دائم. ذات يوم راقبته مصادفة. يستيقظ لصلاة الفجر والسيجارة في يده وعلبة السجائر في جيبه. يلف رأسه الأصلع بشال أحمر. يدخل المطبخ، يفتح العُلب وأدراج الدولاب. لم أكن أعلم عمّا يبحث. يخرج ثم يعود في الساعة الثامنة ويداه محملتان بأكياس يفرغها في عُلب المطبخ، فأدرك أنه كان يتفقد ما ينقص حاجة المطبخ. خالي نزار يعمل في ورشة للحدادة. يذكرني منظره بالملاكمين؛ طويل القامة، عريض المنكبين، مفتول العضلات، يستطيع حمل أمي بيد واحدة. وخالي بركة ما يزال في الإعدادية. كان يشتري لنا الألعاب النارية والآيسكريم. أما خالتي لول فنائمة على الدوام؛ كانت تستيقظ فقط لتناول الطعام ثم تعود للنوم، أو لتذهب إلى الجامعة أو السفر مع صديقاتها.

عاد صوت السائق يصدح:

"توكلنا عليك يا الله، رددوا دعاء السفر."

تخيلت وجه والدي حين يعود منتصف الليل ولا يجدنا. سيتناول الكيك ويشرب العصير بدلًا منا. ثم سيصرخ ويركل الباب وهو يتساءل: كيف

خرجت أمي! وكيف تسنى لها امتلاك المال لنسخ المفتاح من وراء ظهره! وصباحًا سيهرع إلى القرية. سيشتكي لجدتي حسناء تعبه من كثرة المشاكل وسأمه من هذه العيشة. سيقول لها بأن صبره قد نفد، وأنه لولانا لكان قد طلق أمي منذ زمن طويل، وأن "الأم مدرسة" وهو سيهدمها. سيظل ينفث سمه في أذنيها حتى يرق قلبها وتعطيه جزءًا من ذهبها لُيعيد أمي. سيعدها بأنه سيرهن الذهب فقط. لكن ما أن يصل إلى المدينة، حتى تتجه قدماه مباشرة لمحلات الصاغة ليبيع الذهب بلا نِقاش. سيبدأ جلسات القات مع أصدقائه في المنزل، وبعد أن ينفد المال سيعود إلى جدتي مُتوسلًا. سيخبرها أن خالي نزار أرهقه بمطالبه لإعادة أمي، ومرة أخرى ستعطيه ذهبًا فيبيعه، ويكرر الفعل نفسه، لشهرين أو ثلاثة قبل أن يُسافر إلى الحديدة.

في طريق خروجنا إلى الحديدة والفرحة تغمر قلبي ظللت أدعو الله ألا نعود إلى حجة أبدًا. راقبت الطريق بتمعنٍ وكأني أريد حِفظها في ذاكرتي، تارةً تمتد الصحراء بلا نهاية، وتارة تهب الرياح فتلتصق ذرات الرمال بأنوفنا وملابسنا فيغلقون النوافذ فترتفع درجة حرارة السيارة. وما أن نصل إلى مزارع الطماطم والمانجو يفتحون النوافذ من جديد. يتعلق الأطفال بالسيارة، ومع وصولنا مشارف الحديدة أشعر برائحة الأدوية، التي تميزها، أكثر من رائحة البحر. يبدأ جبيني ومؤخرة رقبتي بالتعرق، ويَحمَرُّ خَدَّايَ من أثر ارتفاع درجة حرارة المدينة. أما جمال، النائم في حضن أمي، فقد تسللت قطرات العرق إلى وجهه، وظهرت على خديه وأنفه هي الأخرى. وصلنا الحديدة

ونحن نشعر بالجوع، فقد كانت آخر وجبة تناولناها هي وجبة الإفطار، لكن شغفنا كان مشتعلًا والفرحة تملؤنا. منحت أمي السائق أجرة إضافية لأنه أوصلنا إلى المنزل، ولم يتركنا في المحطة كعادة سائقي الحافلات. عندما وصلنا كان خالي نزار يعمل في الورشة. كان اللِحام في يده والنظارة السوداء تغطي كامل عينيه. حين لمح خيال أمي نزع النظارة غير مُصدق.

- تشاجرتما؟
- قلت لكم من البداية لا أريد هذا الزواج، أنتم من أجبرني واتهمني بانتظار رجل غيره.
- هل ضربكِ؟
- رفعت له يدها لتُريه.
- والله لأجعله يندم على فعلته.

يحمل الخال بركة الحقيبة التي صارت تحفظ طريق المنزل عن ظهر قلب. نلتقي بالجد وهو نازل من الدرج، والسيجارة في يده، بينما الجدة تحية تطهو الشوربة، والخالة لول تأكل الشوكولاتة. نتسابق أنا وجمال للجلوس تحت المروحة، إذا كان المُكيف مُطفأ، وتبدأ الخالة لول بسرد ما حصل لأمي في فترة غيابها:

- والدكِ زوّجَ نهى برجلٍ سعودي عمره أربعين سنة، وله ثلاث زوجات، لكنها تقول إنها سعيدة معه.

- وجميلة، ما حالها؟

- أنا لا أتذكر السعودية ولا جربت لياليها المِلاح، لكن جميلة مغرمة بها وما تزال تحلم بلياليها، كأنما أصابها مرض يسمى العودة إلى السعودية، لدرجة أنها أدخلت أولادها الاثنين للعمل هناك، وزوجت ابنتها كذلك إلى السعودية. أرغب في السفر للتأكد فقط من صِدق حديث جميلة.

- صدِّقي يا لول، صدِّقي.

❊ ❊ ❊

٢٠

الخالة جميلة...

حدثتنا أمي عن الخالة جميلة، عن جمالها وكرمها وطيب أخلاقها وروحها المرحة وحبها للفكاهة. أخبرتنا في الليل أننا ذاهبون غدًا لزيارتها. ارتدينا ما ظننا حينها أنها أجمل ثيابنا. كانت كل جواربي ممزقة، فقالت أمي:

"لا بأس، ارتدي الفستان من دون جوربين."

ذهبنا سيرًا على الأقدام، واستغربنا كيف أن غالبية السكان سُمر البشرة، ولا يرتدون "أكوات" أو "جاكتات" أو ثيابًا تشبه تلك التي يرتديها الناس في حجة. الناس في الحديدة يرتدون بناطيل خفيفة أو إزارًا يصل إلى الركبة، وقمصانًا بأكمام قصيرة، وطاقيات واقية من الشمس. وكان بائعو الثلج والآيس كريم منتشرين بكثرة. في طريقنا تركتُ العنان لمخيلتي لترسم شكل الخالة جميلة: امرأة مجعدة البشرة، مترهلة الجسد، ترتدي نظارة حمراء بعدستين كبيرتين، وتتكئ على عصا تعينها على الوقوف، وعندما تتحدث يخرج رذاذ لُعابها من فمها. لكن حين التقينا بها وقفت مشدوهة أتأملها، حتى أنني نسيت أن أسلم عليها.

كانت شابة بيضاء البشرة، مشدودة القوام، شعرها ذهبي وأسنانها بيضاء لامعة، ولم تكن ترتدي نظارة ولا تتكئ على عصا. احتضنتني أنا وجمال

وكأنها تعرفنا منذ زمن، واحتضنت أمي وهمست شيئًا في أذنها جعلها تطيل احتضانها. كان منزلها صغيرًا وجميلًا، مرتبًا وهادئًا، وفي فنائه أرجوحة لعبنا عليها أنا وجمال دون أن نتعارك. على الغداء، تذوقنا أطباقًا لم نعرفها من قبل: بابا غنوج، عريكة، شوارما، كبسة لحم، وسلطة زبادي. أكلنا بشهية كأننا لم نأكل من قبل، ولم تنهرنا أمي كما كانت تفعل في بيت أهلها:

"كُلا بأدب وهدوء، ولا تصدرا أصواتًا."

تركتنا على راحتنا نأكل بنهمٍ. أكلنا كل شيء حتى لم نعد نستطيع الوقوف من شدة التخمة. نمنا دون قصد تحت هواء المروحة البارد. استفقنا عند أذان المغرب، وملابسنا مبللة بالعرق. ارتدينا ملابس النوم. ثم دخلنا المطبخ مع الخالة جميلة، على الدولاب، كانت هناك علبة زجاجية، بغطاء أزرق على شكل ميكي ماوس الشهير، وكانت مليئة بالعملات المعدنية من فئتي العشرة والعشرين ريال، بيضاء وصفراء. وحين رأتنا نتطلع للعلبة باندهاش فتحتها وأفرغت نصف محتواها في جيبي وجيب جمال. وضعنا أيدينا في جيبينا وهي تصدر أصواتًا ونحن لا نصدق أن كل هذه الثروة ملكنا.

"هذا هدية مني لكما، اشتريا بها ما تحبانه، ومعي هدية أخرى أجمل منها."

أمسكتنا بيدي ويد جمال وقادتنا إلى الثلاجة. فتحتها فانبعث منها ضوء أصفر، وأنار ما بداخلها قلبينا. اندهشنا؛ فالكيكة التي كانت تعدها لنا الخالة حنان سوداء، ولم نكن نتخيل أن هناك كيك أبيض تعلوه ورود حمراء،

وصفراء. كان مكتوب على الكيكة بالأسود شيء ما. ودون أن نعي احتضنا الخالة جميلة، فبادلتنا الحُب والعناق نفسه وهي تقول:

- الله لا سامح والدكم. حرمكم من أبسط حقوقكم.

أخرجت الكيكة وهي تشير إلى ما هو مكتوب عليها:

- هنا اسم دُعاء، وهنا اسم جمال، هي لكما.

كان ما يزال هناك متسع في معدتينا للكيك. التهمنا الجزء المكتوب عليه اسمينا، دون خجلٍ، وشربنا ثلاثة أكوابٍ من العصير. تركتُ لمخيلتي العنان: ماذا لو أن هذه غرفتي، وهذا منزلنا، وآكل يوميًا من هذا الطعام، وأنام وأستيقظ متى شئت، ولا تتأهب نفسي لمشكلةٍ في أي وقت، وأرتدي الملابس القصيرة والخفيفة دون خوفٍ من أحد؟ ارتسم شبح ابتسامة على وجهي، وحين لمحتني أمي لوحت بيدها في إشارة للعودة إلى الواقع.

غادرنا في العاشرة مساءً وكان بودنا أن نبقى إلى الأبد. وعدتنا خالتي جميلة أنها ستُعِد لنا كيكة عليها صورتي أنا وجمال في المرة القادمة. وفي طريق العودة كانت الأسواق مزدحمةً أكثر من النهار، والطريق أكثر متعةً. عندما وصلنا كانت الورشة مغلقة، وكان الخال بركة جالسًا عند باب المنزل. وقف فعرفت أمي أنه في انتظارنا. قبضت على أيدينا بقوة حين قال:

"زوجكِ جاء مع خاله."

الدموع، ككل مرة، عرفت طريقها، انهمرت وكأنها كانت حبيسة منذ زمن.

صعدنا درجات السلم، وكانت أصوات الرجال الصادرة من غرفة الضيوف تعلوا كلما صعدنا درجة. تركتُ يد أمي لأسترق النظر من ثقب الباب. كان أبي يتكلم بصعوبة بسبب امتلاء فمه بالقات، وكذلك كان حال خاله إلى جانبه، وأمامهما كان جدي سعد وخالي نزار. لم يتمالك خالي نزار نفسه فسحب والدي من ياقة ثوبه وهو يصرخ:

"خُذ أولادك معك، أولاد الكلب للكلب."

لا أعرف كيف وجدت نفسي في حضن الخالة لول. قبَّلت رأسها ويديها، وقبلتني هي فذاقت دموعي المالحة في فمها بينما كنت أترجاها:

"أرجوكِ يا خالة، الجد سعد يُحبك... اطلبي منه ألا يعيدنا إلى أبي، سأغسل ملابسكِ وأذاكر بدلًا عنكِ، فقط دعونا نعيش مع أمي."

احتضنتني خالتي، بينما كان جدِّي يسحبني من ذراعي، وجمال يبكي على صدر أمي. فجأة تحول المنزل الهادئ إلى فوضى وصراخ. أمي تشدني من ذراع وجدي من الأخرى، وجمال متشبث بعباءة أمي، وأصواتنا تتعالى بالبكاء، وأبي يصرخ. أمسكني أبي من شعري وشدني، أما جمال فكان يكفيه صرخة من أبي ليأتيه مُكرهًا. كان وجه والدي محمرًا، وما أن نزلنا من الدرج بدأ يضربنا في الشارع أمام أعين الناس وعلى مرأى من أمي التي كانت تودعنا بعينيها من النافذة. تناثرت أموالنا من جيوبنا وهو مستمر في ضربنا وكأنه يفرغ قهره فينا. قال:

"تبكيان لأنكما مع والدكما! أنتما أولاد كلبٍ صحيح! وأنتِ يا آنسة

دعاء ترتدين البيجاما والبنطلون في الشارع، ونِعم تربية أمكِ الصالحة!"

رأى خاله البول يُغرق ملابسنا فأشفق علينا. صعدنا السيارة، بينما كانت رائحة العرق المختلط بالبول تفوح مِنا ومخيلتي ترسم صورة لمنزل أمي، وأخرى لمنزل الخالة جميلة، وثالثة للشوارع ورائحة الطعام. وعلى الجهة المقابلة من الخيال ارتسمت صورة منزلنا المُظلم في حجة، وصورة الغسالة، وغياب أمي. كيف سنعيش في مكانٍ يخلو من أمي! أخيرًا أنقذني النوم من التفكير. وفي منتصف الطريق أفاقني ألم غريب يدور داخل رأسي ولم أكن أعرف أنه الصُداع. وصلنا منزلنا في المدينة قبل الفجر. نمنا من جديد هربًا من الواقع لا إرهاقًا، ولا أزال إلى اليوم أشعر بذلك الألم الغريب في رأسي. في الصباح طلب منا أن نجمع ملابسنا لنسافر إلى الجدة حسناء في القرية. جمعناها داخل أكياس حمراء شفافة، فنالنا صُراخٌ عظيم منه بسبب اختيار الأكياس. قال إننا بذلك نشوه صورته أمام الناس. أغلق الباب بالمفتاح، وفي طريقنا صادفنا جارتنا "سُعاد". كانت امرأة كبيرة في السن. قالت لوالدي بلا حرج:

"أعد زوجتك يا طه، لن تجد زوجة في مثل صبرها. حافظ على منزلك واجمع شتات أسرتك وكنّ رجلًا حكيمًا."

أخرجت من حقيبتها ألف ريال قسَّمتها بيني وبين جمال، وما أن اختفت أخذها منا. وصلنا إلى القرية سلمنا لجدتي وعمتيّ دون اهتمام، كما لو أنه

يتخلص من عبء يثقل كاهله. قال إنه سئم من أمي، وظل يشتم خالي نزار؛ لأنه بزعمه لا يعرف كيفية التعامل مع الصِّهر والنسب. ومن حين لآخر كان يرمقنا بنظرات نارية ردًا على تصرفنا وبكائنا. وبعد أن زاد قلب جدتي بؤسًا على بؤسها غادر لإنفاق راتبه الشهري على لياليه الملاح، مع جُلساء القات والسُمر والسجائر.

كانت جدتي حسناء وعمتيّ تدللاننا، وتُشفقن علينا تعويضًا عن غياب أمنا. وفي أحد الأيام خرجتُ مع جدتي حسناء. أشارت إلى ابن الجزار، وكان في مثل عمري. قالت:

"هذا أخوكِ من الرضاعة؛ أرضعتكِ أمه ثلاثة أشهر."

وفي مرة أخرى أشارت إلى ابن مدير المدرسة وقالت:

"هذا أيضًا أخوكِ؛ أرضعتكِ أمه شهرين."

وأشارت لاحقًا إلى فتاتين وقالت: "وهاتان أختاك". سألتها عن السبب فأجابت بحسرة:

"كانت أمكِ تمكث في بيت والدكِ شهرين، ثم تقضي أربعة أشهر في بيت والدها. أول مرةٍ تركتكِ كنت رضيعة. كان عمركِ شهر واحد، ورفض جدكِ سعد أن يأخذكِ."

كنا نستيقظ في الليل، نبكي غياب أمي، فتحضنني عمتي هناء، بينما تحتضن عمتي رغد أخي جمال. تسردان علينا الحكايات فنهدأ، وتمنحاننا بعض

العملات وقطع البسكويت فنفرح. وحين ترأف بحالنا جدتي، كانت تسمح لنا باللعب في الشارع، من الصباح حتى المغرب. خلال شهر واحد اسمرت بشرتانا، فأدركت جدتي أنها أخطأت بالسماح لنا باللعب تحت الشمس. لكننا كنا قد ألفنا اللعب، فلم يكن باستطاعتها حبسنا في المنزل إلا بتلطيخ وجهينا بالكركم فلا نخرج خوفًا من ضحك الأولاد على لوننا الأصفر. عرفنا لاحقًا أن الكركم يقي من أشعة الشمس، وأن جدتي لجأت إلى هذه الحيلة لتستعيد بشرتنا لونها الطبيعي استقبالًا للعيد.

في منتصف شهر رمضان، اتصلت جدتي بوالدي وأخبرته أن يشتري لنا ملابس جديدة للعيد. ذكَّرته أنه لا دخل لنا بخلافاته مع أمي. وافق أبي، وراحت مخيلتي ترسم شكل الفستان والحذاء والجوربين والحقيبة ولون الأظافر والإكسسوارات. وفي ليلة العيد فتح أمامنا الأكياس. لم أبكِ أمامه، بل قلت له:

"أجمل من التي تشتريها أمي."

اشترى لي فستانًا طويلًا أحمر وحذاءً، واشترى لجمال ثوبًا وجنبيةً وحذاءً. صرختُ شاكيةً لعمتي هناء لأنه لم يشترِ جوارب كاملة للفستان ولا ربطة شعر ولا طلاء أظافر.

استيقظتُ في اليوم التالي وقد اشترت لي الجدة حسناء جوارب بيضاء وطلاء أظافر، وربطت عمتي رغد شعري بمساكات كبيرة استعارتها من صديقتها عندما كانت عروسًا. لكنهم نسوا أمر الحقيبة، فاضطررتُ يومها إلى حمل

كيس أحمر وضعت فيه الحلوى والعيدية. لاحظتُ أنهم يحاولون تجنيبنا شعور فقدان أمي. حين كنا نذكُرها كانوا يغيرون الموضوع، ويطلبون منا الخروج للعب، ويعطوننا الحلوى. قالت جدتي حسناء إنهم سيدخلونني المدرسة، وسيشترون لي حقيبة ودفاتر وأقلامًا. كانوا يتهربون من شيء ما، وحين ألححت على الجدة حسناء أن تخبرني متى ستعود أمي، قالت:

"أمك رفعت قضية خُلع على والدك."

أجبتها:

"خُلع، هل هذا يعني أنها ستضربه وتأخذ حقها كما ضربها؟"

ضحكت وقالت:

"طلبت الطلاق، ولن تعود مجددًا، وستبقين أنت وجمال عندي."

أشعلت جدتي ما كان خامدًا داخلي، فصرختُ وضربتُ رأسي على الجدار، وشددتُ شعري بيديّ، بينما راح جمال يضرب بكفيه على الأرض. حاولت جدتي تهدئتنا فلم تفلح، بل زاد صراخنا حتى استيقظ جدي وعمتاي وذهلوا من ضربنا لأنفسنا بتلك الهستيرية. وبالتأكيد ندِمت جدتي لأنها أخبرتنا بِنِية أمي.

❊ ❊ ❊

٢١

محكمة الحديدة

٣٠/ ٠٣/ ٢٠٠٥م

دخلت أمي المحكمة مع خالي نزار، بعد أن طمأنها المحامي بأن القضية في صالحها. هناك ما يثبت أنه استولى ذهبها، وأوراق الطب الشرعي تثبت تعرضها للاعتداء. عند باب المحكمة، رأت أُمًا وأبًا يتنازعان على طفلهما، بعد أن حصلت الزوجة على حُكم بخلع زوجها. كان الطفل يبكي، فيما يشد الأب يده من جهة والأم تشده من يده الثانية. لم ينادِ وقت بكائه لا أمه ولا أبيه. تذكرت أماني بكاء ابنيها دعاء وجمال، وصراخهما، وضرب والدهما لهما في الشارع، أمام المارة. حصل هذا أمام عينيها، أما ما كان يحدث من وراء ظهرها فعالِم الغيب مُطلِعٌ عليه. وقفت أمام القاضي ونزار واقف إلى يمينها، وإلى يسارها يقف طه وخلفه خاله. قطع صوت القاضي شرودها:

- هل راجعتما أنفسكما؟ هذه آخر جلسة.

أجاب نزار:

- نعم حضرة القاضي، ما تزال على قرارها.

وقتها، تذكرت أماني دعاء وجمال؛ ضحكاتهما وابتساماتهما، ولعبهما، وحتى بكاءهما وصراخهما وإزعاجهما. هل تتركهما لأبٍ مدمن للقات؟ وإلى متى

ستظل تهتم بهما جدتهما وعمتاهما؟ سيتشردان في الشوارع، وسيكبران وسيتذكران أنها تخلت عنهما ولم تُضحِ من أجلهما. ما ذنبهما ليتجرعا بؤس سوء نصيبها! الإنسان لا يتغير للأفضل إلا إذا أدرك خطأه، وكان لديه وعي ورغبة صادقة وإرادة. وهي تعرف أن طه لن يتغير فالطبع يغلب التطبع، فإن عدلت عن قرارها وعادت معه إلى بيته، فعليها أن تتحمل كل عيوبه وتصبر ولا تتذمر أو تشتكي لأبيها وأمها. إن عادت إلى بيت زوجها فلن يقف نزار إلى جانبها مرةً أخرى. أجابت القاضي بصوتٍ خائف وخافت يحمل الألم.. كُل الألم:

- أسحب قضيتي، حضرة القاضي، وأعود لولدَي.

تفاجأ خالي نزار وكذلك أبي وانفرجت أسارير القاضي ومعاونيه. وفي ثانية أغلق القاضي الملف وهو يقول:

- أحسنتِ، أحسنتِ يا ابنتي، ونِعم الزوجة أنتِ، ونِعم الأم، ليت النساء يقتدين بكِ. وأنت يا ابني، يا طه، قدِّر هذا لزوجتك وحافظ على بيتك. أنت ربّ الأسرة ومنك الصلاح والفساد.

أجابه طه وسعادته تفضحه مرتين، مرةً لعودة أمي ومرةً لانتصاره على نزار:

- نعم سيدي، أقدر هذا.

وقف خالي نزار ممتعض الوجه وتوجه بكلامه لأمي:

- ستندمين على قرارك هذا. الأوراق كلها ستبقى معي؛ أعرف أنكِ ستحتاجينها يومًا.

اتصل أبي ليخبرنا أن أمي ستعود معه، ومن شدة فرحتنا لم نصدقه. اغتسلنا وسرَّحنا شعرنا وارتدينا ملابس العيد وتعطرنا خلسةً من عطر العودة، عطر جدتي حسناء. عادت الروح إلى جسدينا وضُخ دم الحياة في شراييننا من جديد. جلسنا ننتظر عند باب المنزل كأننا نقطة تفتيش، ننتظر أمي دون حراك إلا حين تأتي. لم يكن والدي سعيدًا لعودة أمي إلا لأنه يعرف أنه لن يتمكن من الزواج مجددًا. عادت أمي وبكينا في حضنها وهي تهمس لنا:

"ضحيت بنفسي من أجلكما، أنتما ثمرة حياتي وتستحقان أن أفني عمري وأضحي بسعادتي لأجل أن تعيشا كما تستحقان."

وقتها لم نفهم ماذا تعني. ما فهمناه وعرفناه وأدركناه أن أمي عادت إلينا بعد غياب دام ستة أشهر. فتح أبي الباب، وأول ما لاحظناه أنا وجمال أن الغسالة غير موجودة. شعرنا بسعادة غريبة. هل كنا نعتقد أن برحيل الغسالة سيرحل الحزن أيضًا؟ وأن الشجار لن يجد له مكانًا في بيتنا! لا أدري... حقًا لا أدري؟ أما أمي فلم تشاركنا الفرحة. قطبت حاجبيها ونظرت حولها متسائلة:

- أين ذهبتَ بالغسالة؟
- بعتها لأسافر لكِ، أو تحسبين أن السفر مجان!

اشترى لنا والدي تلفازًا ملونًا بدلًا من الأبيض والأسود الذي لم نعد نستخدمه أصًلًا. كانت أول قناة فتحها يمنية، تبث الأخبار ذاتها، عن استمرار الحرب في محافظة صعدة بين القوات الحكومية وجماعة تطلق على نفسها "الشباب المؤمن" قبل أن يُعرفوا لاحقًا بـ "الحوثيين"، ثم "أنصار الله"، وهم

جماعة مُسلحة تسعى إلى إحياء نظام الإمامة الزيدية والولاية، وإسقاط نظام الجمهورية.

اتصل والدي بعمي علي، الجُندي الذي يشارك في القتال هناك. سأله عما يجري فأجابه عمي برحابة صدرٍ وكأنه لم يحدث شيء:

- الحمد لله، نأكل ونشرب ونتناول القات.
- ما آخر أخبار الحرب؟
- قتلوا زميلي، فتظاهرت بأنني قتيل مثله. لطخت ملابسي بدمائه وتمددت بلا حراك. وحين رحلوا، أخذت جاكيت زميلي القتيل ليقيني من البرد ثم انتقلت إلى منطقةٍ أكثر أمنًا.
- إلى متى ستستمر الحرب برأيك؟
- هي حرب يا أخي، تندلع متى شار الساسة، وتنطفئ حين يحققون غاياتهم، أما نحن فمجرد بيادق في أيديهم، نُقتل أو ننجو، حسب ما يقسمه لنا الحظ."
- انتبه لنفسك يا أخي.
- لا تقلق. لا يزال في العمر شقاء.

الجميع يتحدثون عن الحرب ويشككون في نوايا الطرفين: هل كان الرئيس علي عبدالله صالح يحاربهم حقًا دفاعًا عن الجمهورية، كما يزعم، أم أن وراء الأمر نوايا خفية؟ ومتى يا تُرى ستنتهي الحرب؟ وما مصير هذه البلاد التي

يتجرع أبناؤها الدم منذ القدم؟ كانت البلاد في حرب ونقمة، أما أبي فظهرت عليه آثار النعمة من حيث لا ندري. انتقلنا إلى منزلٍ أكبر وأكثر جمالًا، وكثُرت الولائم في بيتنا، واشترى أبي "باصًا" أخذنا به- نحن وجدتي وعمَّتَيّ- في رحلة إلى الحديدة لتغيير الجو على شاطئ البحر. كان يغدق على الجميع بالمال. سألته أمي:

- من أين لك كل هذه النعمة، وراتبك لا يتجاوز الأربعين ألفًا؟!
- استلمتُ جمعية المليون ريال.
- طيب، اشترِ الأرض المجاورة، نبني لأولادنا بيتًا.
- بيت أبي يعِزُني.
- عوضني إذًا عن ذهبي الذي أخذته مني.
- لم أضربكِ على يديكِ لتعطيني إياه!
- إذًا حافظ على ما تبقى معك وافتح بها مشروعًا لك ولولديك.
- معي راتب الدولة... يكفيني لآخر يومٍ في عُمري.

لم تنطلِ على أمي كذبة أبي، لكنها صبرت حتى انتهت أمواله وعاد إلى طبعه الخشن. انقضت أموال الجمعية كما يسميها، وفي إحدى الليالي لم يعد إلى المنزل، وفي الساعة السادسة صباحًا سمعنا طرقًا على الباب. لم تفتح أمي. سألت:

- من هناك؟

- أنا الجندي محمد يا أختي، من إدارة الأمن. هل هذا منزل طه عامر المعدني؟

- نعم. هو غير موجود.

- هو محتجز في إدارة الأمن منذ البارحة؛ أصدقاؤه رفعوا عليه قضية. كانوا قد رهنوا عنده ذهبًا مقابل أن يقرضهم بعض المال، وحين أعادوا له المبلغ بدأ يماطل، واستولى على الذهب والمال معًا.

- وماذا تريد الآن؟

- اختار زوجكِ السجن الذي سيُسجن فيه، وهو الآن يطلب فراشًا وغطاءً وبعض الملابس. يمكنك القدوم إلى إدارة الأمن لمعرفة التفاصيل كاملة.

أعطيناه ما طلب، بعدها ذهبت أمي إلى جارتنا "سعاد". بكت، وأبكت سعاد معها. كانت سعاد تحب أمي كما تحب بناتها، حُبًا مشوبًا بالخوف والقهر من قسوة الدنيا عليها. لذلك رافقتها هي وزوجها العم "أسعد". لكن عند بوابة إدارة الأمن، لم يسمح لهما بالدخول. طلب منهما الانتظار في السيارة، ودخل هو ليأتيهما بالخبر اليقين.

- أختي أم جمال، قضية زوجكِ نصب واحتيال، ولن يخرج من السجن إلا بتسليم الذهب أو دقع قيمته، وهذا هو الحق الخاص، ويتبقى عليه الحق العام الذي سيقرره القاضي. هل لديكم ذهب

لإخراجه من السجن؟

نظرت أمي إلى يديها، تحسست صدرها وأذنيها. شعرت بنفسها خاوية من كل شيء: من الذهب، والفضة، ومن الحُب والسلام. كان والدي قد سرق منها كل ورودها، وتركها أرضًا جدباء قاحلة. كانت فارغةً حتى من المقاومة والأمل.

تذكرت ذهب الجدة حسناء. وبلا وعي تناولت هاتف العم أسعد واتصلت بها، وقصت عليها ما جرى. وبعد أن ولولت وصرخت وبكت وندبت حظها البائس في الأب وابنه أخبرتها أن أبي أفرغها هي الأخرى من كُل شيء.

اشترى العم سعد لأمي هاتفًا محمولًا. كان من أرقى الهواتف في ذلك الوقت، ويُعرف بـ "نوكيا". شعرت أمي أنها مُقبلة على مرحلةٍ جديدة من حياتها. سجَّل لها رقمه، ورقم شرطي صديق له سيُساعدها إن احتاجت شيئًا.

غمرتنا السعادة أنا وجمال؛ لأن أبي في السجن ولن نراه مجددًا. لن يضربنا بعد اليوم ولن نسمع صراخه. لكن الناس، كالعادة، لم يتركوا أمي في حالها. لقد زادوا الطين بلةً:

"كيف يخون أصدقاءه؟"

"يا مسكينة، طوال عُمركِ تتحملينه وأنتِ الآن تتحملينه وأولاده!"

"يا حرام، أنتِ دائمًا مظلومة... من سيُساعدُكِ الآن؟"

"اطلبي الطلاق وارمي له أولاده، لا زلتِ صغيرة والحياة أمامكِ."

كانوا مستنقعًا من الطاقة السلبية. لا أحد فكر في مساعدتها بدلًا من الحديث الفارغ. اتصل العم أسعد بأمي ليبلغها بموعد جلسة المحكمة. حُكم على والدي بالسجن سنة وأربعة أشهر. هذا هو الحق العام، أما الحق الخاص فسينفذ بعد خروجه من السجن، بخصم خمسة عشر ألف ريال شهريًا من راتبه إلى أن يسدد قيمة الذهب.

❊ ❊ ❊

٢٢

لم تكن أمي تعرف كم يبلغ راتب أبي. حين عرفت، وأمسكته بيديها، لم تأخذ منه شيئًا لنفسها. أربعون ألفًا: نصفها لأبي في السجن، وعشرة آلاف إيجار المنزل، وما تبقى لا يكفي ضرورات الحياة: الماء والكهرباء والغاز والدقيق والسكر والأرز والزيت والملابس وأدوات المدرسة.. فوق كل ذلك، خرج الموتى أحياءً من قبورهم ومن كل فجٍ عميق يطالبون أمي بسداد ديون أبي، بعدما أشاع أخواله أن أمي تستلم راتبه.

لم أكن أفهم من أين تستمد أمي كل تلك القوة والصلابة، لكن في الليل، وبعد أن تتأكد من نومنا، تغلق باب الغرفة علينا وتدخل إلى الغرفة المجاورة، تطفئ الأنوار وتفتح النوافذ، وتبكي وهي تصلي. يرتفع صوتها دون أن تشعر، ثم تستدرك نفسها فتبتلع دموعها وتكتم أنفاسها. وفي الصباح، نجدها نائمة بجانبنا، وكأن شيئًا لم يحدث. وحين تستيقظ ترتدي ثياب القوة والأمل. سُجِن والدي، لتخرج أمي من سجنها إلى الدُنيا، ليس للترفيه ونزهات العصر، كما تفعل النساء، بل إلى الكد والعمل والبحث عن لقمة العيش.

كانت أمي تشتري "أحجار شبّ الفؤاد" تطحنها في البيت، ونضع الطحين في أكياس حرارية صغيرة، وتبيعه. كانت تصنع البخور أيضًا، وتضعه في عُلب مستديرة خضراء أو بنية. وتصنع العطور والزباد، وتبيع كل ما سبق في منازل النِفاس والأعراس وأي مكان تجتمع فيه النساء. كانت تذهب لمحلات

العباءات، تستلمها سوداء صافية، وتزينها بفصوص لامعة ملونة باستخدام المِكواة، ثم تعيدها إلى المحلات مقابل مكسب زهيد. ورغم كل هذا الكد، لم يكن بإمكانها شراء نصف دجاجة في بداية الشهر أو نهايته. لكن الله لا ينسَى، كانت الخالة سُعاد- أو كما أحب أن أناديها: "أمي سعاد"- تأتي كل يومين أو ثلاثة، تحمل فوق رأسها صحنًا كبيرًا مليئًا بما لذّ وطاب؛ ليس من باقي طعامهم، بل قبل أن يأكل أولادها منه. كانت تحضر لنا الخضار والفواكه والبهارات والأرز والسُكر والتمر والحليب. وحين دخلنا المدرسة كانت أمي تعطينا عشرين ريالًا مصروفًا يوميًا، أما ملابس المدرسة فمن أمي سعاد؛ من ملابس أولادها. وكان العم أسعد يوصلنا مع أولاده بسيارته إلى باب المدرسة، ويعطي لكل واحد من أبنائه مائة ريال، ويعطيني خمسين ريالًا ورقية ولجمال مثلها. لم نكن نقبلها في البداية؛ بسبب تحذير أمي، لكن مع إصراره نقبلها ونشعر حينها أننا امتلكنا الدنيا وزينتها.

بعد شهرين من القحط، اشترت أمي "ماكينة خياطة"، تمامًا مثل تلك التي تملكها جدتي حسناء. كانت تستعملها في ترقيع الملابس، وتعدل المقاسات، وكل ما تحتاجه نساء الحي. بعضهن يدفعن وبعضهن يماطلن. بتشجيع من أمي سُعاد، سجلت أمي في مركز لتعلم الخياطة. وقتها لم يكن لديها قماشًا تُطبق عليه ما تتعلمه في دروس الخياطة. وحين قصت للخالة جميلة ما نمر به، فاجأتنا بزيارة وأحضرت معها كل شيء... وبكمياتٍ كبيرة، حتى الثوم والملح. كانت تُعد لنا الحلويات كل يوم، بأصناف مختلفة. كما أحضرت

لأمي أقمشة جاهزة للخياطة ثم للبيع. كنا سعداء إلى درجة أوهمتنا الدُنيا أنها ستكون وردية وستُزهر حدائق قلوبنا الجرداء إلى الأبد. كنا ننام مطمئنين إلى أن لا صراخ سيوقظنا، وإن استيقظنا في منتصف الليل فبسبب ضحكات أمي والخالة جميلة وأمي سعاد، التي كانت تسهر معنا، وأحيانًا تنام عندنا مع أبنائها. كنت أحب أن أناديها "أمي"؛ أشعر أنها تحبنا مثل أولادها. حين كانت تحتضنني يدق قلبي، بينما تدعو لي بالصلاح والفلاح والنجاح وابن الحلال الذي ينقذني من أبي.

ولا تزال أمي تكد وتشقى داخل المنزل وخارجه. كانت تزورنا في المدرسة، تسأل المُعلمين عن مستوانا الدراسي، ونقاط ضعفنا. كانت تحضر معها الكيك والعصير؛ لنتباهى بها أمام زملائنا، حتى لو كنا قد بتنا ليلتها دون عشاء. لكن شعور النقص لم يفارقنا، أو لم يفارقني أنا تحديدًا. لم أكن أملك جزمة بكعب عالٍ للمناسبات أو للأعياد. كانت أمي تشتري لي حذاء "كوتش"، للعيد وللمدرسة معًا، وكانت تفعل الشيء نفسه لجمال. كنت أتمنى جزمة تُصدر صوتًا عند المشي على البلاط مثل باقي البنات. في المدرسة، كنت أرتدي الطرحة على شعري، لا حشمةً، بل حياء؛ لأن شعري مجعد، وعندما كانت أمي تفرده بالفازلين يتجمع عليه الغبار والأتربة. وحين تجتمع الفتيات لشراء هدايا للمعلمات، كنت أنسحب بهدوء من الصف، حتى لا أُجبر على دفع المال. وحين يخططن لإقامة حفلة في الصف، كانت رئيسة الصف تكتب اسم الطالبة وأمامه اسم الطبق الذي ستحضره. كنت أقول بفخر: سأحضر

كيكة بالشوكولاتة. وفي اليوم التالي أتغيب عن الحضور. كنت أشعر أني أقل من الجميع في كل شيء، وأظن أن جمال كان يشعر مثلي، ويمقت والدي كما أمقته.

كنا نذهب أسبوعيًا لزيارة أبي في السجن البعيد. كان يستطيع اختيار سجن أقرب إلينا، لكنه، حتى في سجنه، آثر راحته على راحتنا، فاختار سجنًا أبعد، لأنه أفضل وفيه تلفاز. كانت المسافة إليه ساعة وربع ذهابًا، ومثلها إيابًا، نقطعها على الأقدام، وتحت حرارة الشمس ولهيبها، وأيدينا مُحملة بالكعك والملابس النظيفة. ذات يوم ونحن في طريقنا إليه لمحتني صديقتي في الصف، وهي من أسرة ثرية. أوقف والدها السيارة، وأنزلت هي زجاج النافذة وسألتني:

- أهلًا دُعاء، إلى أين أنتم ذاهبون؟

ترددتُ في الإجابة؛ ماذا أقول لها؟ هل أقول لها إن أبي سجين، لتنشر الخبر في الصف فيزيد احتقار الجميع لي! صَمَتُ وردت أمي:

- نحن ذاهبون لزيارة أقرباء لنا.
- هذا طريق السجن!
- هم يسكنون قريبًا من السجن.
- هل نوصلكم في طريقنا؟
- شكرًا يا حلوتي، نحب أن نمشي على الأقدام تحت الشمس والرياح!

في السجن، لم تكن أمي تَسلم من همز وغمز ولمز أفراد الشرطة والحُراس، خصوصًا بسبب لهجتها السعودية التي ظلت عالقة في كلماتها. في طريق عودتنا يشفق علينا أحيانًا بعض سائقي السيارات، فيعرضون توصيلنا مجانًا إلى أقرب منطقة لنا على خط سيرهم. توافق أمي أحيانًا، وفي أحيان أخرى تنظر في عينيّ السائق وترفض.

كنا سعداء بخروج والدي من حياتنا، وتحملنا في سبيل ذلك نظرات الشفقة من الناس؛ فالخبر في مدينة حجة لا يلبث غير دقائق ليصل إلى كل منزلٍ وقاعةٍ وجُحرٍ، فكنا أينما ذهبنا يُشار إلينا بالمساكين:

"مساكين. والدهم في السجن!"

"لِمَ دخل السجن؟"

كان كُل واحد يروي القصة على هواه، ويضيف إليها من مخيلته. وكان أهل والدي أول من حارب أمي، وعلى رأسهم أخواله، إخوة الجدة حسناء؛ كأن أمي هي من زجت بابنهم في السجن! كانوا يأتون في آخر الليل ويطرقون الباب فترد أمي من الداخل دون أن تفتح:

- من أنت؟
- أنا خال الأولاد، أتيت لرؤيتهم.
- من يرغب في رؤية أولادي يأتي في النهار، تحت الأنظار، لا آخر الليل مثل اللصوص.

ذات مرةً جاءت الجدة حسناء لزيارتنا، وكان غداءنا من أمي سعاد. نظرت إلى الدجاج والأرز والفواكه بنصف عين وقالت:

- مسكين ولدي في السجن، لا يأكل، وقد صار جلدًا على عظم!

فترد عليها أمي:

- هو من أوصل نفسه إلى هذه الحالة. هذا عقاب السجن، ويبقى عقاب ما بعد السجن عند دفع المال!

فترد جدتي مبررة:

- مسكين ولدي، لا يمتلك أبًا يخرجه من ورطته. تقاعد عامر وعاد إلى البيت ليكتم أنفاسنا.
- لِماذا تريدين إخراج ابنك من السجن! دعيه يتعلم؛ فمن أمن العقاب أساء الأدب.
- قال لي إنه فعل ذلك لأجلكِ ولأجل الأولاد.
- نتنعم بالحلال يا عمتي. المال لا يبقَى، لكن تبقى وصمة العار والخزي أمام الناس. هو يبحث عن مبررات واهية لفعلته، أراد أن يظهر بمظهر الغني والطبقة الراقية. يشتري الناس ويحسن صورته أمامهم بالمال، أو لعلها عقدة فيه منذ الصِغر، ونحن من يتحمل نتائجها! هل ظن أن أصدقاءه سيسكتون عن حقهم! حسبي الله على ما فعله بنا.

- كنتِ طفلةً بريئة، من أين طال لكِ هذا اللسان الآن؟
- من صُلب الحياة وأعمال ابنكِ بنا، ما أنا الآن إلا صنيع يديه.

❊ ❊ ❊

٢٣

مرت فترة سجنه بسرعة، من حلاوتها لم نشعر بها. ويوم خرج من السجن كُنا في السوق مع أمي. عند أحد المحلات سمعنا النشيد الوطني يصدح من مُكبر الصوت:

"رددي أيتها الدنيا نشيدي... ردديه وأعيدي وأعيدي."

وقفنا، أنا وجمال، ثابتين. وضع كلٌّ منا يده اليمنى على صدره. أغمضنا أعيننا، وكُلنا فخر وعِزة وسعادة. حين عدنا إلى المنزل وجدنا أبي واقفًا عند الباب ينتظرنا، والغضب بادٍ على وجهه. لم يتغير فيه شيء: يده السميكة لا تعرف إلا الضرب والبطش، ولسانه لا يجيد إلا الشتم واللعن. عاد ناقمًا على أمي بزعم أنها سبب دخوله السجن، وأنه لولا جدتي حسناء لما خرج منه، وكان سيموت جوعًا، كما يقول. في أول ليلةٍ، بعد عودته، تشاجر مع أمي. عادت ليالي الصراخ والاستنجاد بنا، فيما نحن كالبهائم: صم بكم عمي. لم أكن أملك إلا الدعاء:

"يا رب، الله يحفظك، أرجوك لا تجعلهما يتشاجران أكثر!"

هربتُ بخيالي إلى منزل أمي سعاد، وأولادها النائمين بعمق، والعم أسعد يغطيهم خوفًا عليهم من البرد. ماذا كان سيحصل للدُنيا لو أن العم أسعد كان أبي؟ لكُنا الآن نيامًا نحلم بالورود والفراشات! اعتقدت يومها أن أبي خرج

من السجن بفضل ترديد قلبي للنشيد الوطني، وأن الرئيس علي عبدالله صالح عرف بذلك فأخرج أبي. كرهت النشيد الوطني، وكرهت الرئيس، وأسرفتُ أكثر في كره أبي، خصوصًا بعد أن ذقنا حلاوة الأيام في غيابه. تشبثتُ أكثر بالبطانية وبأحلام اليقظة واستبدال أبي بجميع الآباء؛ لكن صراخ أمي أعادني إلى أرض الواقع وإلى ظلام الغرفة.

مرت أربعة أشهر، وأُعجب أبي بالوضع. صارت أمي قادرةً على جني المال من ماكينة الخياطة، مثل جدتي حسناء. حينها عرض فكرة دقت وترًا حساسًا في قلب أمي:

"الآن راتبي خمسة وأربعين ألفًا، تخصم الدولة منه خمسة عشر ألفًا قيمة الذهب، ويتبقى ثلاثون. منها عشرة آلاف إيجار المنزل. ما رأيك أن نشترك في جمعية بالعشرين المتبقية لمدة سنتين؟ نشتري بها أرضًا ونؤسس عليها مستقبلنا ومستقبل أولادنا... وأنتِ تتكفلين بمصاريف المنزل؟"

لم تتردد في الموافقة. كانت تُعيل طفلين طوال سنة وأربعة أشهر، والآن ستُعيل طفلين وزوجًا لا يكاد يزور البيت إلا نادرًا، وأصبح عندما تُقصر في شراء شيء ما يذكرها بالاتفاق.

كبِرنا وكبُر خوفنا معنا، وزادت كراهيتنا وحقدنا الدفين على أبي. في المقابل ازداد حُبُنا وتقديسُنا لأمي التي كانت تقطع من جلدها وروحها، وتميت أنوثتها كي تحيينا، أنا وجمال. كبِرت وعرفتُ أن دعائي "يا رب الله يحفظك"

لم يكن صائبًا؛ فالرب لا يحتاج إلى من يحفظه! وهل يُعقل أن يحفظ الله نفسه؟ أفكار كثيرة مثل هذه كانت تراودني فأطردها من رأسي بالتعوذ من الشيطان. وكبِرت الدولة، وكبِر المسؤولون فيها، وكبر جشعهم، فصاروا لا يرون في الحكم إلا غنيمة، دون ذرة تفكير في الشعب. يتصارعون على الحكم، وكأن الحرب مكتوبة على هذه البلاد بسبب الطمع الذي يعمي قلوبهم وعقولهم وبصيرتهم. الشعبُ كذلك مُغيب لا يعرف مصلحته، ولا يفكر، ويصفق للمُنتصر دون أن يعرف ما الذي سيأتي بعده!

يزيد عمر أبي بحساب السنين فقط، أما في الشكل فلا؛ مازال جسده قويًا، ولم تتجرأ شعرة بيضاء واحدة على أن تغزوا شعر رأسه، على عكس والدتي التي تخفي شيب شعرها بالحناء، فيصبح جزءًا من شعرها أسود من الخلف، وأبيض مُحمر من الأمام. رغم ذلك كنا نراها جميلة متألقة وفاتنة. الخالة جميلة كانت تقول إن أمي تغيرت منذ أول ليلة دخلت بيت أبي، ذبل جمالها وانطفأت أنوثتها.

أما جدي عامر، فقد انفصل عن جدتي حسناء، لكن دون طلاق رسمي، فخرجت مع عمتَيّ من القرية واستأجرن منزلًا في المدينة، وتكفل عماي علي ووليد بإعالتهن.

انتهت السنتان، وأبي يماطل كلما سألته أمي عن موعد استلام الجمعية. راود أمي الشك فاتصلت بصديقه، الذي يزعم أنه رئيس الجمعية. اكتشفت الحقيقة: أبي لم يشترك في الجمعية أصلًا.

إحساس أمي لا يخطئ أبدًا. كانت تراه يوميًا يشتري القات والدخان والبيبسي، وحين تسأله: من أين لك هذا وراتبك يذهب كله خصميات وجمعية؟ كان يجيب:

"من أصدقائي، رزق من الله، يرزق من يشاء بغير حساب!"

شعرت بألم في ظهرها، وتذكرت السنتين اللتين قضتهما فوق الماكينة. لماذا فعل بها هذا؟

توقعنا، أنا وجمال ليلة طاحنة. كان الغضب والشر يخرج من عينيّ أمي، وحين عاد، واجهته بكذبه وهي تصرخ بانفعال، لكنه قلب الموازين لصالحه:

- كيف تتصلين بالرجل؟
- أنت من اضطرني لفعل ذلك، ألا تعرف أني كنت على اتصال بإدارة الأمن والحراس والسجانين بسببك؟ من الذي أخرجني من منزلي وأجبرني على أن أقوم بدور الرجل؟ أليست أفعالك القذرة! ظننتُ أن السجن سيغيرك لكنك كما أنت، لِمَ تفعل هذا بنا؟
- هذا راتبي، ملكي الشرعي، وأنا وحدي من يقرر كيف يصرف. عشت مظلومًا والآن أعوض حرماني.
- وتظلم أولادك، ما ذنبهم؟
- هذه حياتي، وهؤلاء أولادي، اخرجي من بيننا إن شئتِ.

عيب أمي الوحيد أنها رحيمة، لها قلب متسامح لا يعرف إلا العفو والصفح. بعد سداد قيمة الذهب، عاد أبي ليدق على وترها الحساس:

- يا أماني، دعاء في الصف السادس، وجمال في الرابع. سيكبران ولن يجدا شيئًا أمامهما. أنا والله نادم على كل ما فعلته وأريد تصحيح خطئي.
- كيف؟
- نقترض من البنك مائة وخمسون ألفًا، نشتري بها أرضًا، ويخصم من راتبي عشرين ألفًا شهريًا حتى سداد القرض، بعدها نأخذ قرضًا آخر ونبني بيتًا.

رضخت أمي لفكرته، وبعد أسبوع من المعاملات استلم أبي القرض. ولكي يقنع أمي بصدقه طلب منها حبلًا ليقيس به الأرض. لم تصدق نفسها من الفرح، ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن أخذها إلى الأرض. جلست تلمس ترابها، كأنها تلمس ترابًا لأول مرة. وفي طريق عودتهما كان الناس يتناقلون خبر ثورة الربيع العربي. كانت الثورة قد بدأت من تونس وأسقطت الرئيس "زين العابدين بن علي"، ثم أطاحت بالرئيس "محمد حسني مبارك" في مصر، و"معمر القذافي" في ليبيا. اتضح من البلبلة التي عمت أن ثورة الربيع العربي ستشتعل نيرانها في اليمن. انطلقت الشرارة من مدينة تعز وامتدت إلى ساحة جامعة صنعاء ثم حدثت اشتباكات في منطقة الحصبة بصنعاء بين قوات الرئيس وجماعة حزب الإصلاح. وبعد مظاهرات شعبية حملت شعار: "الشعب يريد إسقاط النظام"، سقط الرئيس "علي عبدالله صالح" ورُشِّح خلفًا له "عبد ربه منصور هادي"، ولم يسقط النظام؛ حلت الفوضى.

٢٤

ما ذنبي أنني كبرت وبدأ صدري بالبروز وملامح وجهي تتسم بالجمال؟ كنت حين أمشي لا أستطيع المشي باستقامة كي لا يلاحظ أبي نهديّ فيضربني. أرتدي أربعة قمصان، واحدًا فوق الآخر؛ لأخفي بروز نهديّ الصغيرين، حتى داخل المنزل، وفي حر الصيف. كنت أتمنى لو أرتدي بنطال جينز، مثل باقي الفتيات، ولو حتى في البيت. اشتريت واحدًا خفية، وكنت أرتديه في غياب أبي، وأُبقي التنورة قريبة، فإذا ما سمعت صوته أرتديها بسرعة. كبرتُ، وصارت العباءة لازمة في الأعياد. في المدرسة، كانت هناك فتاة ترتدي عباءة أطرافها ذهبية، فتمنيت لو أن معي مثلها. أفصحت لأمي عن رغبتي، وفي الليل أخبرت أبي، وكان رده:

"لا أملك المال لشراء عباءة."

رأتني أمي سُعاد فأهدتني أربعة آلاف ريال وقالت:

"خذيها، اشتري بها عباءة."

كانت أول عباءة أرتديها من أمي سعاد، بينما أبي لا يُبالي وأمي تغض النظر عن كل شيء من أجل الأرض. كانت تحسب الأيام وتنتظر متى تنتهي فترة القرض. ظلت تخطط في رأسها كم سيكون عدد الغُرف، وكيف سيكون شكل المطبخ ولون الأثاث واتساع نوافذ المنزل... وانتهت فترة القرض،

لكن الخصم من راتب أبي ظل جاريًا. بدأت الشكوك تلعب في رأس أمي فذهبت إلى الأرض لتجد عُمالًا يرفعون الأساسات. انفطر قلبها وخانتها دموعها لا إراديًا. عادت تشتكي لأمي سُعاد فاتصلت بالعم أسعد ليستوضح الأمر. وبعد نصف ساعة اتصل العم أسعد وقال:

"أخذ قرضًا بثلاثمائة ألف ريال."

لم يدع أبي مجالًا لأمي لتحبه أو لتشفق عليه.

عاد إلى البيت، وكانت أمي تنتظره، يدها على خدها، بينما خداه هو منتفخان من شدة حشر القات في فمه.

- ما بكِ؟ الظاهر أن ليلتنا سوداء!
- كم القرض الذي استلمته من البنك؟

أدرك أنها عرفت كل شيء فقال:

- لا دخل لكِ، المال مالي.

صرخت دون أن تتمالك نفسها:

- حرامٌ عليك يا رجل، صبرنا أثناء سجنك، أكلنا ولبسنا من إحسان الناس، احتملنا نظراتهم وكلامهم، وكل ذلك بسببك. إلى أين تريد أن تصل بنا يا ظالم!

وقبل أن تنهي شكواها أسكتها بيديه ورجليه. أسكتها لأنها قالت الحقيقة، وهو لا يرغب أن يحاسبه أحد. يريد أن يعيش مراهقته المتأخرة على حسابنا.

لم تكن مشكلة أبي أنه لا يُحسن التفكير، بل لأنه لا يريد أن يفكر.

أكثر من كرهي لأبي، كنتُ أكره شهر رمضان. يقولون إن الجن والمردة والشياطين تُحبس في هذا الشهر، وأظنهم يحبسون في بيتنا. كنت أحمدُ الله إذا مر يوم بلا شجار، وأبقى مهمومة بما سيحمله لنا اليوم التالي. الإنسان شيطان نفسه، بذرة السوء داخله تعمل ليل نهار، لكنه أضعف من أن يعترف بأخطائه فيُلقي باللوم على الشياطين. لكن حبل الكذب قصير، يأتي شهر رمضان ليُظهر البينة على ظلم الإنسان لنفسه. كنا نتجنب الخصام معه، ونسعى لإرضائه بكل الطرق، لكن لم يكن يرضيه شيء. بعد أن يضربنا كان يجبرنا على الأكل معه، فإن رأى دموعنا على المائدة يقذف الأطباق في الهواء، قبل أن يقذف بنا بعدها. أبي ظلم نفسه وظلمنا معه، لم يجلب لحياتنا سوى الظلام. كانت إذا تسللت بقعة نور إلى حياتنا شككنا بها لشدة يأسنا، كأن النور دخيل ولا يدوم. تدريجيًا، أفقدتنا معاملته إرادتنا، لم نعد نحلم، ولا نملك الشجاعة لاتخاذ قرار التغيير، أو الوقوف في وجهه ولو للحديث معه. حين تراجعت أمي عن قرار الخُلع كانت تعرف ما ستواجهه، لكنها لم تكن تتوقع أن القادم سيكون أقسى بكثير. قالت لي يومًا:

- حبيبتي دعاء، والدكِ مغلوب على أمره، ما هو إلا نتاج إهمال وأنانية وظُلم أبيه عامر.
- هل يريدنا أن نصير مثله؟ ما ذنبنا إذا كان محرومًا ولم يربه أحد؟ ما ذنبنا نحنُ لنجني ما لم نزرعه!

كبِرتُ وأصبح عقلي يقتلني بسُمِّه البطيء اللذيذ الذي يسري في شراييني.

كثيرًا ما كنت أغيب عن الواقع: أسرح في عالم من الصور والكلمات والأشخاص الذين أزرع فيهم الحياة، وأعيش معهم كما أحب، لا كما ينبغي. أحلام يقظتي كانت لا إرادية، لا قدرة لي على التحكم بما أفكر فيه. رأسي يؤلمني على الدوام، لم يجد الأطباء لعِلتي اسمًا ولا علاجًا. كنت أشعر أن عقلي ماكينة من عجلات حديدية تدور بلا توقف. أضع خشبة لإيقاف الحركة فتنكسر، أضع حديدًا فينصهر، بينما يستمر رأسي في الدوران مثل كون بلا هُدىً أو درب منير، فقط لأهرب من الواقع.

الأخبار كانت واحدة من طُرق هروبي. أشاهدها فأتخيل نفسي رئيسة للجمهورية: ماذا كنت سأفعل في مثل هذه الحالة أو تلك؟ كنتُ في الصف السابع حين سمعتُ في نشرة الأخبار عن "عاصفة الحزم". كانت ثورات الربيع العربي قد أثمرت في بعض الدول العربية، لكنها في اليمن تحولت إلى كارثة. الدولة التي كانت تحارب الحوثيين في صعدة، سلمت لهم في النهاية مقاليد الحكم.

يقول المذيع:

"دول التحالف تشن غارات جوية على مناطق الشمال اليمني الخاضعة لسيطرة جماعة "أنصار الله"، أما الجنوب فقد سلم أمره للسعودية ودول التحالف."

تذكرتُ كيف كانت اليمن ذات يوم مقسمة: شمال يحكمه الإمام يحيى،

وجنوب يرزح تحت الاحتلال البريطاني... وها نحن نعود إلى انقسام مشابه. في ليلة السادس والعشرين من شهر مارس، عام ٢٠١٥م. انطلقت "عاصفة الحزم". قصفت الطائرات مناطق متفرقة، واندلعت جبهات قتال جديدة. حشد "أنصار الله" المقاتلين، كما فعل الرئيس السابق علي عبدالله صالح. دُمِّرت البنية التحتية، بفعل الحربين الداخلية والخارجية، ارتفعت أسعار النفط وانقطعت الكهرباء والماء، وقفز سعر أسطوانة الغاز من ألف وثمانمائة إلى ثمانية آلاف ريال. عاد الناس إلى زمن العيون والآبار، إلى الشموع وقناديل الجاز الصفراء، إلى الحطب والفحم، وإلى أفران الطين. أصبح من الرفاهية أن تجد وسيلة لشحن هاتفك المحمول. انتشرت ألواح "الطاقة الشمسية"، كما انتشرت طوابير الغاز والنفط والمياه. لكن وسط هذا الركام، ظلت رائحة التعاون تفوح: من يملك كهرباء كان يشحن هواتف جيرانه، كُلٌّ حسب دوره، وكأننا نحاول ترميم بعض إنسانيتنا وسط ذلك الانهيار الكبير.

عادت البلاد إلى زمن المجاعة. كان قد حدثنا كبار السن عن ذلك الزمن، وتنبأوا بعودته، لكن سنوات الرغد القليلة التي جاءت بها الجمهورية أنستنا المتربصين بها. صرَّحَ العرافون والمشعوذون أن هذه الحرب لن تنتهي إلا بوصول الدماء إلى الرُكب؛ وأنها ستكون آخر الحروب في اليمن، ولو طالت وسلبت من الإنسان إنسانيته. هذا ما أخبرهم به الطالع وروته لهم النجوم والأفلاك. بعدها، في آخر الزمان، ستنعم اليمن بالأمن، ويزحف إليها العالم راكعًا. بعد شهرين فقط من اندلاع الحرب، نزح الناس من حرض وصنعاء

وصعدة إلى حجة وعمران، وإلى كل بقعة لم تصلها القذائف بعد. هربوا خوفًا من اهتزاز الأرض تحت أقدامهم، ومن تناثر الشظايا والأشلاء فوق رؤوسهم. من لم تقتله الصواريخ قتله قلبه الضعيف بنوبة مفاجئة أو جلطة خبيثة أو بشظية زجاج نافذة محطمة أو بمقذوف مرتد من مضاد الطائرات أو برصاصة طائشة لا يُعرف مصدرها.

دخل الخوف قلوب الجميع. لم تُبقِ الحرب شيئًا إلا وسلبته. من كان يجرؤ على الحُلم فقد توقف حلمه عند قصف المدارس والجامعات والكليات. ومن أراد أن يبدأ مشروعًا، رأى الرجال وهم يبيعون أثاثهم وسياراتهم، والنساء وهن يبعن حُليهن. ومن كان يحلم ببناء منزل، رأى بأم عينيه بيوت الآخرين وهي تهدم أو تفخخ. ومن تمسك بمنزله أصبح قبره. ومن كانت تتوق للإنجاب عزفت عنه حين رأت جُثث وأشلاء الأطفال تنهشها الكِلاب.

أتت الحرب ودخلت كل بيت يمني، ثقبت قلوب الأمهات والآباء والأبناء والإخوة والأخوات. لم تترك عينًا لم تدمع، ولا قلبًا لم يرجف، ولا حُلمًا لم يُكسر، ولا عزيمة لم تُبدد، ولا عزيزًا لم يُذل، ولا بيتًا عامِرًا لم يُخرب... سلبت الحرب من الإنسان رغبتهُ في الحياة. وحدهم تجار الحروب عمرت بيوتهم وظهر النعيم على أجسادهم وقصورهم وسياراتهم.

سألتُ نفسي:

لِمَاذا يصاب اليمن بكل هذا البلاء؟ هل لأنها أنثى، والذكور من حولها يتصارعون على حكمها؟ ما ذنبها إن كانت فتنة امتلاكها تُذهب العقول

والقلوب والضمائر؟ هل كل الإناث مثل اليمن؟ امتلاكهن يغوي، يشعل الغرائز، ويُعمي البصائر والبصيرة، ويُمحى عند أعتابهن الصبر والعقل؟

هل ذنب اليمن أنها أنثى؟

❊ ❊ ❊

٢٥

"سامحيني يا ابنتي، أنتِ المظلومة من بين كل بناتي."

كانت تلك آخر جملة قالها جدي سعد لأمي قبل وفاته. أكلته السجائر فمات بسرطان الرئة، ولم يتذكر في لحظاته الأخيرة سوى أمي. وبعد أربعة أشهر رحلت جدتي تحية، لتصبح أمي يتيمة. سألتها يومها وهي تبكي:

- أمي، كيف هو شعور اليُتم؟ هل هو مؤلم؟
- أحسستُ باليُتم حين زوجني أبي لوالدكِ، ثم حين لجأت إليه راجية أن يبقيكما معي فرفض. كان لليتم رائحة في المرة الأولى، الآن لا طعم لهُ ولا رائحة.
- هل سامحته؟
- هو والدي أولًا وأخيرًا، والمغفرة ليست بيدي.

ارتاح جدي وجدتي من الحرب ورائحتها الثقيلة التي اجتاحت مدينة الحُديدة وأغلقت ميناءها. حين قُصف المعسكر الذي كان يعمل فيه جدي عامر، ظلت الأسلحة والقنابل المخزنة فيه تنفجر داخله، من منتصف الليل حتى ظهر اليوم التالي.

الطاقة السلبية تأكل القلب والعقل أكثر مما تفعل أصوات الصواريخ. الصراخ والشكوى في كل مكان، وفي كل زاوية شخص يبكي. قبل الحرب،

كان التهديد بقطع الراتب مجرد عبارة مجازية ساخرة بين شخصين متعاركين، لكنها أصبحت حقيقة واقعية مستمرة منذ سنوات. قُطعت رواتب الموظفين في معظم المؤسسات الحكومية، فتفرق أغلب الموظفين للبحث عن مصادر أخرى للعيش. فتجد أستاذًا في الجامعة يعمل سائق تاكسي وآخر يعمل عند مقاول باليومية، وتجد مدرسًا في المدرسة يبيع القات. وآخر يهاجر إلى خارج اليمن. منهم من اتجه إلى التسول ومنهم من أنهى حياته. انتشرت المنظمات الخيرية لمساعدة النازحين والمحتاجين. احترفت المُدرِسات الخياطة والتطريز والتجميل والنقش بالحناء، أو العمل من منازلهن في صنع الحلويات والوجبات وتسويقها.

ذات يوم عدتُ من المسجد إلى بيت جدتي حسناء، فلم أجدها. وجدت عمتَيّ هناء ورغد تُنفسان عن همومهما بالحديث لبعضهما:

- متى يرحمنا الله يا رغد من هذه العيشة! لا تزوجنا ولا أنجبنا، ولا درسنا ولا توظفنا ولا اعتمدنا على أنفسنا!
- في بداية حياتنا حاربنا أبي وبعده جاء طه، والآن نعيش على إحسان علي ووليد... إلى متى نظل عالة؟
- إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا!
- لن أسامحهما أبدًا. حرمونا من حقوقنا، ولم يوفروا لنا كل متطلباتنا، ولا يريدون سماع أصواتنا بحجة تقاليد القبيلة والستر والعفاف والحفاظ علينا من أعين الناس... هل نحن عار؟

كان ذلك يوم جمعة. ذهبت أمي عصرًا إلى السوق، وبقيتُ أنا وجمال في المنزل نُذاكر دروسنا. لا أعرف كيف حدث ذلك؟ فجأة، كأن شيئًا أسود سقط من السماء. أظلمت الدنيا، وبدأت تمطر حجارةً مشتعلة. اهتزت الأرض وتحطم زُجاج النوافذ. ودون أن نشعر احتضنا بعضنا، ونحنُ نصرخ ونبكي، ولا نعرف ماذا يحدث. هدأت الدنيا لدقيقتين ثم عادت القذائف من جديد وعاد معها الضباب الأسود ورائحة البارود، وتطايرت الحجارة وسط صراخ الناس وبكائنا. تمسكنا ببعضنا مجددًا. حين هدأ كل شيء، فتحنا باب المنزل. رأينا امرأة تركض بثوب نومها وتصرخ باحثة عن طفلها الذي كان يلعب مع الصبية في الشارع. في تلك اللحظة، عادت أمي وهي تبكي، احتضنتنا، وقبّلتنا من رأسينا حتى أقدامنا وهي تحمد الله على نجاتنا. وبعد أن عاد والدي ليطمئن علينا، تلقى اتصالًا من أحد أصدقائه يخبره أن عمتَيّ أصيبتا.

حينها، كانت جدتي حسناء في زيارة لوالدها، ولم يكن في البيت سوى عمتَيّ. لم تبكِ جدتي. فقط حدقت في الفراغ طويلًا، وكأنها مُغيبة عن الواقع. قالت:

"رحم الله ابنتَيّ، ولا رحم من كان سببًا في قتل قلبي."

أما جدي عامر فظل يحدثنا عن ابنتيه، عن طيبتهما، وعن رضاه عنهما. قال إنه لم يقصر في حقهما، وأنهما ستشفعان له يوم القيامة. وفي يوم العزاء، في بيت العم عبد الواحد، قالت النساء إن الله رحمهما من هذه الأيام التي يشيب لهولها الولدان. تغيرت الجدة حسناء كثيرًا. انطفأت لمعة عينيها، ورحلت

عنها ابتسامتها ولم تعد تنتظر شيئًا، حتى أن الكلام أصبح أمرًا شاقًا بالنسبة لها.

مثل كثيرين، كنا نسكن في منزلٍ بالإيجار. ولأننا تأخرنا عن دفع الإيجار؛ بسبب انقطاع الرواتب فقد طابتنا مالكة المنزل بالخروج. ظلت أمي تبحث عن منزلٍ بديل، إلى أن وجدت واحدًا أجمل، في وسط المدينة، لكن إيجاره كان ضعف المنزل الأول. لم يكن أمامنا خيار آخر، فنقلنا متاعنا إليه.

ليست في الحرب أي ميزة، لكن الأزمة الواقعة على البلاد دفعت جدي عامر إلى أن يشمّر عن ساعديه ويعود للعمل، بعد أن ورث فراش كسله لأبي، الذي تعلل بعدم قدرته على أي عملٍ غير التدريس. نقل حِمله إلى ظهر أمي وماكينتها، ورمى بجمال تحت أقدام الرجال في الأسواق؛ يقشر البصل حتى تحمر عيناه، وانمحت بصمة أصابع يده. كان ينظف ويبيع ويحمل على ظهره، أما أبي فيستيقظ ظهرًا، يتناول طعامه، ثم يمضي إلى السوق ليسلب أجرة جمال ويشتري بها القات.

في الصف الثالث الإعدادي، قررت إدارة المدرسة إقامة حفل تخرج. طلبتُ من أبي المال. رد بجوابه المعتاد:

"من أين؟ ونحن بلا رواتب!"

وكأنه كان يعطينا شيئًا قبل قطع الرواتب! أعطتني أمي ألف ريال، لتكاليف الزي والقاعة، وأعطاني جمال خمسمائة ريال للغداء. وفي يوم الحفل لم يحضرا؛ لبُعد المكان، وعدم امتلاكهما أجرة التاكسي. لم يصورني أحد حين

أُعلن اسمي. لم أتزين بالفل، ولا صبغت أظافري، ولا زينت يديّ بإكسسوارات. عجزت حتى عن تصنع الفرح، أو ربما استكثرته على نفسي. وسط ضجيج الموسيقى وأضواء الكاميرات، تخيلت أبي مثل بقية الآباء؛ يأتي ويضع الفل حول عنقي، يتصور بجانبي، ويهديني هدية التخرج. لقد فعل كل ذلك في مخيلتي فقط. ظللتُ أحلم... حتى ارتويت قلبًا وروحًا ووجدانًا.

❊ ❊ ❊

٢٦

الكلاب أكلت جدي عامر!

أتت الحرب، وأخذت معها الراتب الذي كان الجميع يعتمدون عليه، ومنهم جدي عامر. في بداية الحرب باع بيته في القرية سرًا ليعيش بثمنه، ثم استأجر منزلًا صغيرًا في المدينة، عاش فيه وحيدًا، وهو في السبعين من عمره. في إحدى الليالي، بينما كان عائدًا إلى منزله، بعد منتصف الليل، هاجمته كلاب جائعة؛ حتى هي اشتكت من جور الحرب، ولم تجد ما تأكله سوى جسد جدي الممتلئ باللحم. انقضت عليه تنهش جسده، وهو يصرخ ويستغيث، حتى سمعه الناس وأنقذوه في اللحظة الأخيرة. راحوا يلومون أولاده العاقين، الذين تركوا أباهم يكد ويعمل في هذا العمر. لكن الناس لا يرون سوى الظاهر، لا يعرفون جبروت وقسوة عامر حين كان شابًا، ولا يعلمون أن نهايته هذه هو من رسمها بنفسه. ليس الناس وحدهم من يجهل الحقيقة؛ عامر نفسه ما زال يرى أنه على حق، وأن زوجته وأولاده هم المخطئون العصاة.

المشكلة الكبرى أن أبي يشبه أبيه. يرى نهايته ماثلة أمامه في مصير والده، ورغم ذلك لا يتعظ. يرى نفسه محقًا، وأن زواجه من أمي هو من أغلق الدنيا في وجهه. ما زال قاسيًا طاغيًا، يؤثر نفسه علينا، لا يكلف جسده حملًا ثقيلًا، ولا يحمل قلبه همًا صغيرًا. وحين يضيق به الحال، ولا يجد مالًا للقات- شغله الشاغل في الحياة- يعود للنيل من أمي. يفتعل شجارًا معها ويضربها

ليأخذ مالها، ثم يعود في منتصف الليل، يطلب رضاها... لكن دون عصير وبسكويت. وتسامحه أمي من جديد. كنت أعلم أنها تضحي من أجلنا، لكني كرهت تضحيتها وخضوعها واستكانتها له. ذات يوم انفجرتُ في وجهها صارخة، ربما لأني كرهت أن أكون سببًا في تعاستها وعذابها:

- طلقيه واشتري نفسكِ، اتركينا!
- لمن أترككم؟ لمن؟ وقد بعت نفسي لأجلكم!

كانت قد عزمت أمرها على ألا تتخلي عنا، وعزمت أمري للدفاع عنها ما حييت. ذات مرة تشاجرا، وخرج غاضبًا كالعادة. عاد في منتصف الليل، ولم تفتح له الباب. ناداني:

- دعاء افتحي الباب.

أجبته بغضب دفين:

- لا، أنت المخطئ.

كان مثل ثور هائج، يضرب الباب بقدميه ويصرخ ويشتم. سمعه الجيران، فاضطررنا لفتح الباب. اندفع نحو الداخل، ضربني بكل ما طالته يده: عصي المكانس، الأحذية، حتى الجدران نالها شيء من ألمي. كان يصرخ:

- أبوك المخطئ يا دعاء ها، أنتِ ما تربيت كما يجب.

ظل يضربني حتى غبت عن الوعي، ولم أعرف وقتها ما فعله بأمي. كثيرًا ما كنت أخفي وجهي الملون عن زبائن أمي، لكن ما كان يؤلمني حقًا هو وجه

أمي. كنت أشعر بالأسف من عجزي عن فعل شيء لها، لكن ضربي معها كان يخفف عني شعور الذنب الذي يتفاقم داخلي.

استيقظَ ذات يوم بعد صلاة العصر، في نهار رمضان، ولم يجد ثوبه نظيفًا. دخل المطبخ غاضبًا يريد أن يضرب أمي. في تلك اللحظة شعرتُ برغبة حارقة في قتله، كانت يداي مغموستين في الطحين، وكان ظهره نحوي. قفزت وتعلقت برقبته بكل قوتي لأخنقه. شددتُ قبضتي على عنقه، بينما كانت أمي تصرخ أن أتركه. لم يكن أمامه إلا أن يرتد إلى الوراء ليرتطم بجسدي على الجدار بقوة، وبعد ارتطام جسدي بالجدار للمرة الخامسة شعرت بقواي تخور. أظنه شعر بهذا أيضًا، وبحركة سريعة، مثل الملاكمين، شدني من يدي، ورفعني في الهواء ثم هوى بي أرضًا، وبدأ يركلني بلا توقف. لم أبكِ وقتها، وكان هذا أكثر ما أزعجه. حافظت على ابتسامتي، رغم أن جسدي لا يخلو سنتيمتر منه من الكدمات. كنتُ ابتسم لأنه نسي أمر أمي.

حين كنت أرافق أمي إلى بعض الأعراس، كنت محط أنظار النساء، وحديثهن عن جمالي وأنوثتي. تأتي النساء للسؤال عن حسبي ونسبي. وكنت أقطع الطريق عليهن بإجابات حادة ولهجة لا تخلو من كِبر ووقاحة، لا لأني متعجرفة، بل لأبعدهن عني. كرهت الرجال، والزواج، ولم أتمنَ يومًا أن أكون عروسًا لأحد. وكنت أزداد كرهًا لمن يردد على مسامع أمي بأني ما زلت صغيرة ولم أرَ شيئًا من الدنيا لأحمل كل هذه العقد النفسية!

لا يعلمون أن أبي سرق مني أجمل ما فيّ. سرق جمال روحي وسلامة عقلي،

وسلب الحب من قلبي. انتزع براءة طفولتي والرحمة من قلبي. كل فتاة ترى في والدها مصدر الأمان، إلا أنا. لم يكن الأمان يزور منزلنا إلا في غياب أبي. ولم تكن الطمأنينة تعرف طريقها إلينا إلا حين يُغلق الباب وراءه. كان مصدر تعاستنا وشقائنا، وسبب نظرة الناس الدونية لنا. كبرت وأنا أراه عدوي الأول، وأفكر أن اختفاءه من حياتنا كفيل بإنهاء الشقاء إلى الأبد. لكنني منه! أنا ابنة الكره والحقد والقسوة والعنف المتوارثة أبًا عن جد. أشبهه أكثر مما أشبه أمي. وددتُ لو أستأصل هذا الشبه من جذروه.

سائق دراجة نارية شاب، صدم جدي بدراجته. فرحتُ حين سمعت الخبر من جمال. تمنيتُ لو أنه مات وأراحنا من شره؛ فهو السبب الأكبر في شقائنا. فتحت الأغاني، رفعت صوتها، ورقصت، رغم أني لا أعرف كيف أرقص. لم يكن الرقص مهمًا، المهم أن أعبر عن سعادتي. سمع أبي صوت الأغاني قبل أن يطرق الباب. وبعد أن فتحت له سأل:

- سعيدة لحادث جدكِ؟

- نعم.

وكعادته، ضربني، وكعادتي، لم أعد أبكي أو أذرف دمعة واحدة. لكنني شعرت بشيء داخلي ينكسر ويتلاشى ويذهب إلى العدم. شعرتُ أن الدنيا هذه كبيرة جدًا، ولن يوقفها ولن يؤثر فيها اختفائي. أخذت المشرط، وكنت سعيدة بقراري. قطعت شريان يدي اليسرى وأنا مبتسمة. أظلمت الدنيا في عينيّ وقلبي، لكنني كنت راضية تمامًا عن صنيعي. شعرتُ بأمي تصرخ، وأبي

يصرخ، وجمال يصرخ؛ وقد عكروا عليّ صفوي وخلوتي. ألبستني أمي العباءة والخمار، وحملني أبي بين ذراعيه إلى السيارة، وأنا مشمئزة منه. ماذا لو أنه حملنا بهذا الحنان منذ بداية حياتنا! لِماذا مارس ضدنا ما عاناه من والده! لِماذا جرعنا من الكأس نفسه! لِماذا لم يفكر بنا مثلما فكر في نفسه؟ هو ربّ الأسرة وبيده سعادتنا واستقرارنا، والآن يأتي ليشعر بالذنب! أقسم ألا حق له، وألا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب. ألم يعرف أن فاقد الشيء هو أكثر من يعطيه، وهو المعلم والتربوي؟

شعرت بألم وخِدر وثِقل في يدي اليسرى، لكن عقلي لم يتوقف عن التفكير: في أي مستشفى أنا؟ وماذا فعلوا بي؟ فتحت عينيّ على وجه والدي، فأغمضتهما فورًا؛ قلت في نفسي: لا أريد رؤية هذا الكابوس. كانت أمي عن يميني، بعينيها المنتفختين من البكاء، وجدتي حسناء عن يساري، لم تكن تقل حزنًا عن أمي. قالت بصوت متهدج لكنه حاسم:

"يا ابنتي، أنا لستُ متعلمة مثلكِ، لكني أعرف أكثر منكِ. قال الله في كتابه: "لقد خلقنا الإنسان في كبد"، يعني: في تعب وشقاء. والله لا يضع الإنسان في موضع إلا وهو يعلم أنه قادر على تحمل معوقاته، وقادر على المقاومة. ألم يقل الله: "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها"! أتريدين الموت قبل أوانك! والله يقول: "لكل أجلٍ كتاب". تريدين مصارعة الله في قدره وكتابه المكتوب وهو يقول: "وبشر الصابرين"! اصبري يا ابنتي، لعل الله يجعل نصيبكِ مثل نصيب

عمتيك، رحمهما الله."

تحدثت بعدها أمي وهي تتحاشى النظر في عينيّ:

"ضحيت بحياتي لأجلكِما، أنت وجمال. وتأتين الآن لتتخلي عني؟ ماذا فعلتُ لكِ لتعاقبيني هكذا؟ ألا تعرفين أنكِ ربيع حياتي؟ وبدونكِ لا حياة لي!"

ثم أمسك أبي يدي، وراح يقبل أصابعي ليشعرني أنه حزين لما فعله بي:

"أنا أعتذر يا ابنتي، سامحيني. أنا مخطئ، لكن ليس لدرجة أن تتخلصي من حياتكِ. مهما فعلتُ فأنا أبوكِ، وعلينا أن نسامح بعضنا."

لم أكره أبي لحاجتي للكره أو لطبيعة فُطرت على الكره. كرهته لأنه لم يكن الملاذ الآمن ولا الحضن الدافئ. كرهته، لأن فجوة الخوف بحضوره كانت تتسع، إلى درجة صرت أكرهه حتى في لحظاته الجميلة معنا. أستعيذ من دقائق حبه لنا! وكرهته أكثر في لحظات حبه لنفسه. كرهته، وما زالت الفجوة بيننا تتسع. كرهته، وأنا لا أدري: أيحقُ للأبناء التعبير عن كرههم لآبائهم القساة؟ أم أن ذلك يُعد عقوقًا؟ ألا يعرف أبي عن عقوق الآباء للأبناء، وهو المعلم؟ ألا يعرف أن عقوقه لنا قد فاق عقوقي له!

❋ ❋ ❋

٢٧

جانحة كورونا ٢٠٢٠

مع اتساع مساحة الفقر واستمرار الحرب في اليمن، بأشكال شتى، انتشر في العالم فيروس "كورونا". قيل إنه قادم من الصين. أُغلقت المطارات ومُنع السفر؛ خشية انتقال المرض. وبينما كان الوطن العربي يتناقل صورًا ومقاطع مصورة لآثار الفيروس، وكان العلماء يبحثون عن وسائل لمكافحته، كانت أمي تنتقل من مكان إلى آخر؛ باحثة عن سكن يأوينا، بعد أن طلب مُلاك المنزل إخراجنا منه. لم تترك شبراً في حجة إلا وبحثت فيه عن منزل للإيجار، لكن نزوح الأهالي من حرض والحديدة وصعدة إلى حجة، أدى لازدحام سكاني وارتفاع أسعار الإيجارات. وعادت أمي لإحياء حلم الماضي من جديد:

- ألم أقل لك أن تبني لنا منزلًا؟ هل تذكر ما قلته لي: منزل أبي يعزني! والآن منزل أبيك لم يعز أباك، وها نحن نطرد من منزلٍ إلى آخر!
- هذا قدرنا، لم يرد الله لنا بناء منزل.
- بل لم ترد أنت. كان أقل ما يجب عليك تجاه أبنائك هو أن تبني لهم مأوى.

كنت حينها في الصف الثالث الثانوي، وجمال في الأول الثانوي، وكان قرار أمي سريعًا. بعد اتصال من صديقتها في صنعاء، قالت:

"سننتقل إلى صنعاء. صديقتي وجدت لنا منزلًا هناك."

وخلال ثلاثة أيام، وبمساعدة أمي سعاد وبناتها، والخالة حنان، جمعنا ملابسنا، وكل مقتنياتنا، ونحن نبكي على الفراق. تواصل أبي مع سائق شاحنة لينقل أغراضنا. وفي اليوم المحدد لخروجنا من المنزل، سافرت أمي صباحًا إلى صنعاء، وذهبنا، أنا وجمال، إلى الجدة حسناء؛ للإقامة في بيتها حتى نهاية العام الدراسي. كان أبي قد أخرج كل متعلقاتنا إلى الشارع انتظارًا للسائق الذي أخلف وعده. ظل جمال يحرس الأغراض من الصباح حتى المساء، ثم يعود لينام، ويحل أبي مكانه طوال الليل. استمر هذا الحال ثلاثة أيام، إلى أن وجد أبي سائق شاحنة آخر. ثلاثة أيام وأغراضنا في العراء أمام أعين المتطفلين الذين ظلوا يصورون المشهد وينشرونه في مواقع التواصل وهم يحتقرون مُلاك المنازل. بينما أمي في صنعاء، تبكي. وأنا عند جدتي أدعو على أبي في كل سجدةٍ بأن يحرق الله قلبه ويخرجه من حياتنا؛ فهو السبب في كل ما وصلنا إليه.

في الفصل الدراسي الثاني، بدأت الطالبات الاستعداد لحفل التخرج، بينما كنت أستعيذ منه ومن الشيطان الرجيم، إذ لا يزال حفل تخرج الإعدادية عالقًا في ذاكرتي. كنتُ أستبعد عن نفسي الفرح، وأستكثر على قلبي لحظة ضحك. أنا عجوز طاعنة في السن، تسكن جسد شابة عشرينية. لستُ كبقية الفتيات اللاتي يحلمن بالحب ويخططن للزواج ويتحمسن لحفلات الأعراس. ارتديتُ زي الكهولة في ريعان شبابي، وكنتُ سعيدة بذلك الزي.

وصل فيروس "كورونا" إلى كل بقاع الأرض، ومنها إلى اليمن، التي كانت قد عرفت خلال فترة الحرب كثيرًا من الأمراض والأوبئة. أُغلقت المدارس والجامعات والمعاهد والكليات والمساجد، وبالطبع أُغلقت مدرستي، ولم يعد هناك حفل تخرج. جمعنا ملابسنا وسافرنا إلى صنعاء، لنجد أمي بلا عمل؛ فلا أحد هناك يعرف أنها خياطة. ومع تدهور وضعنا المادي أكثر، أدرك أبي أخيرًا ما نحن فيه، فلم يكن أمامه سوى الالتحاق بجبهات القتال. كنا سعداء، لا لأنه يرسل إلينا ثلاثين ألف ريال شهريًا، بل لأنه سيغيب في الجبهة، ومن المتوقع أن يقتل؛ فمن يذهب إلى القتال لا يعود غالبًا.

من صفات أبي أنه يترك بصمته أينما ذهب. لم يلبث في الجبهة غير أربعة أشهر، ثم عاد بعد افتعاله لمشكلة. ومن جديد عُدنا إلى وتيرة المتاعب نفسها. كنت أستيقظ صباحًا لتبدأ الكوابيس، فأشرد من الواقع المُر إلى النوم، مع علمي أن النوم لا يحل شيئًا، لكن الراحة التي يمنحها تجعلني أُقدسه. كنت كلما استيقظت، أعود للنوم بعزيمةٍ أقوى على ألا أستيقظ مجددًا. سألت نفسي: هل هناك من يظن أن الواقع أجمل من أحلام النوم؟

مرت ثلاث سنوات عِجاف ونحن نلهث للوصول لمرادنا الذي يبدو أنه يقف في آخر ممر حياتنا ساخرًا مِنا. ثلاث سنوات ازددتُ خلالها جمالًا وفتنةً، لا طاقة لي بهما. لا أعرف ما فائدة الجمال الخارجي وأنا مشوهة داخليًا! خطت السنون العِجاف ندوبها على وجه أمي حتى اتحد بياضه ببياض شعرها، بينما أبي كان لا يزال بكامل قوته وشحمه ولحمه وعقليته وقسوته. ذات يوم

ضرب جمال ضربًا مبرحًا كالعادة، فقالت أمي:

- يقول المثل إذا كبر ابنك صادقه.
- بل أكسر رأسه، وأقتلعه من جسده.

لكل زمان دولته ورجاله، لكل عصر ناسه وأفكاره. وزمننا هذا ليس كزمن الجدة حسناء، ولا كزمن أمها فاطمة. اليوم، لم تعُد الفتاة تُجبر على الزواج، كما في السابق، أو هكذا يفترض. صارت تخرج إلى الجامعة وتلتحق بالوظيفة، وتناقش الرجال وتحاورهم بشجاعة، فإن فشل الزواج، فالحل الأسهل هو الطلاق. لم يعد الطلاق وصمة تجرح، ولا حتى موضوعًا يثير الجدل. صار الخوف من المرأة لا عليها. لكني لستُ من هؤلاء النسوة. كل أحلامي كانت تنحصر في منزلٍ صحي وبيئة آمنة وهادئة. لم يكن لي من وسيلة لتحقيق ذلك إلا بالخيال. كنت ألوذ به، أستنجد به من الواقع، علّه يمنحني فرحًا. على جغرافيا الأحلام كنت أصنع فنًا ممزوجًا بكذبة، أرسم حياتي صورًا وكلمات، أُغرقها بالألوان والسعادة، وأمزجها بالنور لتضيء. قد تخونني الابتسامة التي أرسمها على شفتي، فتباغتني دمعة، لكنني ألوّح للناظرين شامخةً، كأن لا شيء يعنيني. أضع عن كاهلي الحمل الذي أثقلني، وأحمل بدلاً منه أحلامي. ألتقط صورًا لكل الجمال من حولي، ذلك الجمال الذي يمرّ بي كثيرًا ويغيب عني أكثر. أُخلد لحظاتي بعدسةٍ لا ترى ما بداخلي، لكنها تسافر بعيدًا خلف ما أخبئه. ذهبتُ بعيدًا رغمًا عني... نحو شعاع من نور لا أعرف إن كان هو ما ينتظرني فعلًا. كل ما أحتاجه: شعاع صغير يتسلل

إلى عتمة قلبي، أمل بلا كلل، حتى لا أخدع نفسي، وأستمر في حياة الخيال والأوهام المغرية.

وسط ركام الماضي وحرائقه، علِقتُ في رماد الحاضر. هناك، اتخذت قرارًا لا رجعة فيه: سأقتل والدي. بهذا وحده، تهنأ أمي، ويُسعد جمال، وأموت أنا، خالية من أي حقد وغلّ. سأقتله بشرفٍ، وأمام الجميع، ليكون عبرةً لأمثاله.

❊ ❊ ❊

٢٨

حاولت انتشال إنسانيتي من مكانٍ ما.. لكنه كان يسلبني الحياة قطرةً قطرة، حتى لم أعد أملك من نفسي شيئًا سوى وترٍ صغير، يهتز كلما هبت رياح الأمل. أخاف إن انقطع، أن أتوه في جحيم هذه الحياة. تبًا لي، لم يعد بإمكاني إخفاء تعبي؛ بات الجميع يشعرون بي. أنام ملتحفةً دموعي، رافعةً يدي إلى السماء، غير راجية في قدوم الصباح. كل ما أرجوه هو نهاية لا أتذكر بعدها شيئًا مِما مضى.

جمعتُ كل مدخراتي القليلة، وبورقةٍ وقلم رسمتُ مصيري، للمرة الأولى، وبيديّ. لا شيء أسهل ولا أقصر من طريق الشر عند من يُحرم من وسائل التصالح مع الحياة. بحثتُ عن بدروم للإيجار في بناء فارغ، فوجدته في "فج عطان"، ولأنها منطقة مستهدفة عسكريًا، كان الحي شبه خالٍ. عدتُ إلى عامل النجارة، وشرحتُ له مواصفات الخازوق الخشبي المطلوب، لكنه لم يفهم. استعنت بصورة من محرك البحث تُظهر خازوقًا عليها جسد رجُلٍ يبدو ميتًا. استعاذ من الشيطان مستغربًا طلبي، وسألني عن الغرض منه!

"أريده يا عم لعمل مسرحية تُجسد حقبة دراكولا."

لم يعرف من هو دراكولا، لكنه فهم المطلوب. ثم أتت المهمة الأخطر: استئجار سيارة. وبعد بحثٍ استئجرت واحدة من أحد المعارض، وكان شراء

الأدوات الباقية سهلًا.

حسبتُ كل شيء، ما قد يحدث وما لن يحدث، واخترتُ بعناية يوم تنفيذي جريمتي.

ذهب جمال إلى عمله بعد المغرب، وكانت أمي مدعوة إلى حفل عُرس.
وضعتُ لأبي حبة منوم في كوب عصير، وبصعوبةٍ وخوف حملته إلى حقيبة السيارة. أغلقتُ هاتفه وهاتفي... وقدت السيارة قاصدة البدروم في فج عطان...

❊ ❊ ❊

٢٩

وضعتُ القلم، وأغلقتُ الدفتر البني، معلنةً توقفي عن الكتابة، بعد أن أجهدت ذاكرتي في تصفح ماضٍ لا تخف وطأته إلا بالكتابة. تلك الخيالات تحولت إلى كلمات، كُتبت خلال شهرٍ لاهث الأنفاس.

أعددتُ قهوتي الباردة، وفتحتُ التلفاز على قناة تعرض فيلم "الزنزانة السابعة". أغلقتُه في منتصفه، وقد فهمت مضمونه الذي أثقل رأسي أكثر. خلدتُ إلى النوم في غرفة واسعة، بها سرير أبيض كبير، تتناثر فوقه وسائد صوفية بيضاء ناعمة. نِمتُ كعامل أنهكته مشقة النهار في الحجر والطين، أو كقتيلةً لا روح فيها. لا كوابيس تؤرق منامي، ولا صباح أترقبه بخوف من شمسه، ولا واقع قادم أتهرب منه، مع من يحتضرون أو يعيشون حياتهم في الرمق الأخير.

استيقظت صباحًا أو ظهرًا، لا أدري. فتحتُ الستائر فغمرتني شمس تتوسط السماء. فعرفتُ الوقت. كنت قد طلبت من الدكتورة هويدا إزالة كل الساعات من منزلها. راودتني تساؤلات: لماذا الساعة دائرية الشكل؟ لتذكيرنا بالروتين اليومي الممل؟ أم لأن الدنيا دوارة والكرة الأرضية دائرية؟ ماذا لو كانت مستقيمة، تسعى إلى ما لا نهاية؟ وددت لو أنها تكذب حتى في شكلها؛ ليوهمني بأن اليوم مختلف، بأن الزمن لا يعيد نفسه، لكن الساعة لا تكذب.

بعد صلاة الظهر، ارتديتُ ملابسي وخرجت إلى أقرب مطعم لأشتري شيئًا يؤكل. لم يعد لي أذنين أشعر بهما، أسمع أصواتًا خاوية من المعنى. في كل زاوية، وتحت كل حجرٍ، وداخل كل جُحرٍ، شخصُ يبكي. لا يهم السبب، المهم أنهم يبكون. أطفال يتسولون وعجائز ينبشون في القمامة، وشباب غارقون في شاشات هواتفهم، ورجال يتحدثون عن بلد ينهار، وكهول يلعنون جيلًا فاسدًا، ونساءً بلا حياء... ووسط كل هذا يتحدثون عن فتاة تقتل والدها بطريقة وحشية! أسمعهم يتحدثون وقلبي يبتسم وعقلي يتساءل: ماذا لو أخبرتهم أن تلك الفتاة هي أنا! كيف ستكون ردة فعلهم؟ ابتعت طعامًا، وعدتُ إلى الشقة. وجدت الدكتورة هويدا تنتظرني عند الباب، والقلق بادٍ عليها:

- أين كنتِ يا دُعاء؟ قلقتُ عليكِ.
- لا تقلقي على الأشرار. خرجتُ فقط لشراء طعام.
- لم توافقي على أخذ هاتف حتى!
- لا رغبة لي في سماع أو رؤية أحد أو حتى معرفة أخبار شيء عن هذه الدنيا، أبحث عن هدوء... عن سكينة.

فتحتُ الشقة. تناولنا الطعام معًا. قالت:

- لم أدخل شقتي منذ طلاقي من رائد.

غيرتُ مجرى الحديث:

- حسبتُ كل شيء بالورقة والقلم، إلا ظهورك، لم يكن في الحسبان.

- نرجس حدثتني عنك... تيقنت أن من يرتكب جريمة كهذه لا يمكن أن يكون شخصًا عاديًا. بحثت عن والدتك، بمساعدة الضابط رائد، وطلبت منها أن توكلني وصديقتي المحامية بالقضية، أريد دراسة حالتكِ أكثر.
- ما هو نقيض الحُب يا دكتورة؟
- الكُره.
- كيف للقلب أن يحب ويكره في آن واحد! يمكن للكُره أن يتحول إلى حُب. هذا يعني أن نقيض الحُب هو اللامبالاة!
- أفهم من كلامك أنكِ كنتِ تكرهين والدكِ، وكان بإمكانه تحويل الكُره إلى حُب!
- نعم، لكنه ظل يعتقد أنه على صواب حتى الرمق الأخير.
- مشكلتك يا دعاء أنك معزولة عن الواقع؛ مصابة بالبارانويا، والهلوسة والأوهام الناتجة عن التفكير المفرط... أنت تعانين من اضطراب ما بعد الصدمة أو اضطراب الشخصية الحدية.
- لا يهم.
- بل يهم. صديقتي المحامية شذى أخرجتكِ بكفالة واستضفتك في بيتي، وطلبت منك كتابة قصتكِ كاملة، حتى لحظة إبلاغكِ عن نفسكِ. هذا من أجل أمكِ أولًا، ثم من أجلكِ ثانيًا، لتخرجي إلى

العالم معافاة، ثم من أجلنا، نحن الذين لا نزال نعاني بأشكال مختلفة.

- ومن قال لكِ إني أريد الخروج من السجن؟ من أمن العقاب أساء الأدب، والمذنب يجب أن يُعاقب!

- أنت ضحية يا دُعاء. على كل حال، سنزورك غدًا، أنا والإعلامية نرجس، والمحامية شذى، لنتحدث معكِ أكثر. سأتركك الآن لتكملي القصة، فجلسة المحاكمة اقتربت، وأحتاج إلى كتابة تقرير مفصل.

❊ ❊ ❊

٣٠

وجدت مشقة في إخراجه من السيارة وإنزاله على الدرج سحبًا. خشيتُ استيقاظه، فربطت يديه ورجليه بإحكامٍ على الكرسي الخشبي، ثم عدتُ إلى السيارة. أخرجت الفيتامينات والعصائر والبسكويت، وكامل عدتي. حين استيقظ بادرته بالسؤال:

- هل رأيت في نومك أني أقتلك مثلًا!
- لماذا أنا هُنا، فكي وثاقي يا بنت الكلب!
- المهم أني لستُ الكلب!
- فكي وثاقي، وسأكسر لكِ عظامكِ.
- لا زلت كما أنت: ترى نفسك على حق ونحنُ المخطئون. لكن اليوم هو يوم انتصاري، شئت أم أبيت. انتظرت هذه اللحظة طوال حياتي، بل طوال حياتي والكوابيس تُعشش في رأسي وقلبي، واليوم... ستُسقى من الكأس نفسه!
- يا بنت الكلب!
- نعم، هو كلب من عمل الشيطان. قل لي: ما أسوأ شيء تتوقع أن أفعله بك؟
- فكي وثاقي، ولن أمسكِ بسوء أبدًا. سأنسى ما حصل وكأن شيئًا لم يكن!

- وهل تظن أني أتيتُ بك إلى هنا للقيام بتمثيلية درامية ثم نعود سويًا إلى البيت!

درتُ بحركةٍ درامية والسوط في يدي:

- هل تتذكر عندما كنت تضرب أمي بالحزام، ليتصبغ جسدها بالدم، وتملأه الكدمات؟ وبعد أن تضربها، تعطيها الثلج لتخفيف الألم! كنت كمن يدق مسمارًا في الجدار ثم يندم ويقتلعه. لكن هل يزول أثره؟ أنت تخطئ وتكذب وتخدع وتسرق وتعتبر كل هذا حلالًا لك، وتريد مِنا نسيان ما فعلت! هل هذا يجوز؟ أنت بلا مشاعر... ودوري الآن أن أُعيد لك بعضها.

ضربت بالسوط على الجدار ليُحدث قرقعة. حتى هذه اللحظة، لم يكن يتوقع ما أنا مُقدِمةٌ عليه. رفعتُ السوط، وهويت به على وجهه مباشرة، فصرخ. لم أترك له فرصة لالتقاط أنفاسه، فتوالت الضربات على وجهه ويديه وقدميه وكامل جسده. هو يصرخ وأنا أضحك... حتى نزلت دموعي أخيرًا.

- هل ترى؟ ها هي دموعي التي كنت تراها وأنت تضربني، تُذرف الآن في عزائك!

لا أعرف، هل كنتُ أضحك فرحًا في الانتقام أم لأن سيناريو حياتي يُعاد أمام عيني... منذ لحظة طلبي من أمي أن تدهن شعري المُجعد بالسمن، إلى هذه اللحظة. تركته بعد أن خارت قواي؛ تمامًا كما كان يفعل بِنا.

- هل الضرب مؤلم أم لا؟ لِمَ كان كل هذا! هل ارتكبنا خطايا جسيمة استحقت كل ذلك العنف؟ وماذا عن أخطائك وجرائمك في حقنا، أنا وجمال... وأمي وأمك وأختيك! هل تعلم، أنهما قبل موتهما، قالتا إنهما لن تسامحاك؟!

كان جسده يرتعش. رششت رأسه بالماء البارد فاستفاق. قال بصوت ضعيف، متهدج ويائس:

- أرجوكِ يا ابنتي... أنا أعتذر عن كل ما بدر مني، أنتِ محقة وأنا المخطئ، ارحميني!

- وهل رحمتنا لنرحمك؟!

توقفت عن الكتابة، والصداع يهاجم رأسي.

❊ ❊ ❊

٣١

هويدا

بعد أن غادرتُ شقتي التي أستضيف فيها دعاء، ذهبتُ لزيارة صديقتَيّ: المحامية شذا والإعلامية نرجس. ناقشنا القضية، وكيف يمكن علاج دعاء وإنقاذها مما هي فيه.

قلتُ:

- ما رأيكما أن نذهب غدًا لزيارتها؟ أريدها أن تسرد الفصل الأخير، بلسان جسدها لا بلسان قلمها الذي قد يغويه الخيال.

قالت المحامية شذى:

- لست متخصصة في علم النفس، لكن عندما تحدثت معها في النيابة، لم أشعر أنها مريضة نفسيًا، أو أنها سبق أن حاولت الانتحار. كانت في غاية الاتزان والهدوء، حتى أنها لم تكن تريد محاميًا يدافع عنها!

قلتُ:

وهذا أخطر أنواع الأمراض النفسية؛ أن يتصرف المريض على نحو طبيعي، فيبدو لغير المختص سليمًا، لكنه في الحقيقة مضطرب ويعاني من الشتات النفسي. لاحظتُ من كتابتها أنها كانت تهرب كثيرًا إلى الخيال، لأنها لم تستطع مجابهة الواقع. هي ضعيفة الإرادة،

هشة من الداخل وتمثل أنها قوية. الفارق في المعاملة بين عائلة والدها وعائلة والدتها لعب دورًا كبيرًا في تشتت شخصيتها. يا شذا، إن أشد المراحل خطورة على الإنسان هي طفولته. وطفولة دعاء لم تكن طبيعية. سوء المعاملة في هذه المرحلة يؤسس لكل اضطراب لاحق، مثل: الاكتئاب، انعدام الثقة، والخوف... الآباء حيت يسيئون معاملة أطفالهم، لا يدمرون طفولتهم فقط، بل يدفعونهم نحو الضياع أو حتى الانتحار.

قالت شذى:

- وماذا عن قولها إنها فعلت ما فعلته انتقامًا لوالدتها؟
- هي ترى في نفسها البطل المنقذ لأمها. حُبها لأمها اضرها أكثر مِمَ أفادها. لم يسعفها تفكيرها لإنقاذ من تحب إلا بالتخلص ممن تكره. إنه حُب بنكهة الموت.
- هو حُب بنكهة الدم. إذن هي فعلًا مريضة نفسيًا!
- نعم، ولو أنهم عالجوها، بعد محاولة الانتحار، وغيروا بيئتهم، وغيَّر الأب معاملته... ما كان شيء من هذا ليحدث. البيئة تُحدث فرقًا إيجابيًا في العلاج أكثر من علاج المختصين.

قالت نرجس بتوتر:

- أنتما لم تحضرا إلى مسرح الجريمة، ما من بشر له قلب يفعل كل ما

فعلته، إنها شيطان في هيئة إنسان!

عادت الدكتورة هويدا وكوب القهوة في يدها. قالت:

- بل هي ضحية، يا نرجس. ضحية لعامر الذي أجرم في حق والدها، ووالدها الذي أجرم في حق أمه، وأختيه وزوجته وابنته وابنه. أسوأ الجرائم هي جرائم المستقبل، ما لم نضع لها حدًا في الحاضر. لا تُعالج الجريمة بمثلها، ولو أن الرد بالمثل هو الحل، لكان جدها أحق بالقتل والتعذيب. هذا إن كان العنف قد بدأ من عنده ولم يكن متوارثًا منذ أجيال! دعاء لم تقتل الشخص الذي قهرها، بل الذي دمر حياة والدتها. في نظرها، الجاني هو والدها لا غيره.

قالت نرجس:

- هي قاتلة، وهذا لا يُغير شيئًا في القضية.

بعد لحظة صمت، قالت شذى:

- إذًا، نتيجة التقرير واضحة يا هويدا.

- لا يا شذى. الأخطر من الجنون هو إثبات الجنون. الفتاة مريضة، نعم، لكنها لن تؤذي أحدًا بعد والدها. سنوصي بأن تعالج في مصحة، لكن المرحلة الأخطر ستكون بعد خروجها، حين تصطدم بالمجتمع الذي سيذكرها بكل شيء.

صرخت نرجس:

- هل تريدين إخراجها من السجن؟! أو تهريبها خارج البلاد؟ وأي بيئة هذه التي ستغفر لها؟ المغفرة بيد السماء، يا هويدا، لا بيد البشر.

❋ ❋ ❋

٣٢

دعاء

كان الماء البارد كالنار على جراحه. بدا ضعيفًا ذليلًا خاضعًا خائفًا منكسرًا! اختفت غطرسته وصراخه. وهو يستجدي الرحمة، ذكرني بي وبجمال حين كنا نلوذ بالغسالة ونرجو منه الرحمة.

- هل تتذكر أيام كنت تضربنا ثم تجبرنا على شرب العصير وتناول البسكويت؟ هل كنت تفعل ذلك لكي نسامحك؟
- بل بسبب شعوري بالذنب.
- ولِمَ كنت تكرر أفعالك إن كنت تشعر بالذنب؟
- لا أدري. لكني لا أستحق ما تفعلينه بي الآن. عقوبتي نلتها مسبقًا من والدي، وما فعلتِه بي حتى الآن يكفي.

صرختُ بحرقةٍ ونيران ذاكرتي تتأجج:

- وهل كنا نستحق ما كنت تفعله بنا؟ اذكر لي سببًا واحدًا جعلك تهدر حياتنا هباءً منثورا! هل تتذكر حين كنت تقطع شعري وشعر أمي، وتجرنا به يمينًا ويسارًا مع كل شِجار؟ هل كنت تكره الشَّعر؟ أم ماذا؟ هل تريدني أن أُخلصك من شَعرك؟ وهل تعلم أن شده مؤلم؟

أمسكت الساطور بيدي اليمنى، وثبتُ رأسه باليسرى. صرخ وأنا أنتزع فروة

رأسه. وظل يصرخ من الألم والعجز، تمامًا كما كنا نصرخ: أمي وجمال وأنا.

- أنا آسف يا ابنتي... أعتذر عن كل ما بدر مني.

- تأسف على ماذا؟ أعلى ضربك أمي وإهانتها أمام الناس دون وجه حق؟ أم على تبديدك المال على جلسات القات؟ أم على حرمانك لنا من أمي، حين كانت تغيب في الحديدة بسببك، أم على حرماننا من أبسط حقوقنا في العيش بسلام في بيت هادئ مستقر؟ أم على نظرات الناس الدونية إلينا، وشعورنا ألا أب لنا يسندنا؟ لقد حرمتنا حتى من الأحلام. كسرت أجمل ما فينا... كسرت الرحمة في قلبي. وهذا الوحش الذي أمامك هو من صُنع يديك.

سقيته العصير والفيتامينات المقوية، وبعد أن نام... نمتُ بجانبه.

❊ ❊ ❊

٣٣

هويدا

زرتُ دعاء برفقة نرجس وشذى، لتروي لنا الفصل الأخير من القصة. بدأت الإعلامية نرجس تروي تفاصيل ما حدث في مسرح الجريمة:

- عندما اتصلوا بي لتغطية مسرح الجريمة، توقعت أن أرى جريمة كالتي اعتدنا عليها. لكن عندما رأيت المكان واطلعت على تفاصيل ما جرى، ذُهلت وتمنيت أنني لم أختر مهنة الإعلام. يومها تقيأت كل ما في جوفي. قلت في نفسي: هذه الفتاة منعدمة الإنسانية والضمير والإحساس! إنها شيطان! وبعد انتهائي من التصوير، وخروجي من المبنى، والتقاء عيني بعينيّ دعاء للحظة، رأيت فيهما قسوة ممتزجة بحزن وعجز.

توقفت نرجس عن الحديث وتطلعتْ في الفراغ.

سألتُ دعاء:

- هل يمكنكِ أن تسردي بقية قصتكِ يا دعاء؟

بدأت دعاء تسرد وقائع اللحظات الأخيرة في حياة أبيها:

- أسوأ شعور يمر به الإنسان، هو أن يشعر أنه غير مرغوب فيه. أسوأ شعور هو أن يكره الابن أباه. صبرنا عليه، صبرنا بِما يكفي، بانتظار

أن يتغير. كنا قد بدأنا في الاعتياد على الذل والمهانة. أين الخطأ في أني أردتُ إيقاف هذا؟ لم أثأر من الماضي إلا بقدر ما أرغب في وضع حد للجريمة في المستقبل. إنني أغلق الدائرة مفضلةً الموت، وتجنبًا لاحتمال ولو بسيط في الثأر من أبنائي الذين أنقذهم بعدم إنجابهم... عندما استيقظ من غيبوبته، كانت قواه منهكة، لكن ليس أكثر من إنهاكنا. هو لم يترك قلبًا إلا كسره، لم يُشعرنا يومًا بالفخر به كأب. انتزع منا ثقتنا بأنفسنا. بعد استيقاظه شعرتُ أنه لا فائدة تُرجى من قدميه اللتين طالما تغذتا على ركلنا. أخذت المنشار الكهربائي وقطعتُهما، فتناثر دمه على ملابسي، وبقي طوال الليل يئن ويبكي... سألت شذى والألم باد على وجهها:

- ألم تشعري بألمه؟

كأن دعاء لم تسمعها، أو لعلها شعرت بلا جدوى الإجابة. واصلت سرد ما حدث، ومن حين لآخر تضحك بهستيرية، عروقها نافرة ودموعها تنهمر. كان منظرها مخيفًا ومحزنًا. تذهب إلى النافذة ثم تعود لتواصل كلامها الذي كان متناقضًا، وغير منطقي أحيانًا، وأحيانًا تنسى ما قالته. ختمت دُعاء مرافعتها:

- ترك والده يضرب أمه ويضربه وقتما وكيفما يشاء، بحجة أنه أراد طاعتهما ورضاهما! أيهما أفضل في نظركِم: طاعتي أم طاعته؟ في اليوم الثالث، فككتُ وثاقه، وهو يتوسل العيش، ولو بلا قدمين. تعجبت من حُبه وتمسكه بالحياة! كان قد خفّ وزنه، لا أدري أين

ذهب شحمه ولحمه! حملته بسهولة... ووضعتُ فمه على الخازوق وتركته يهوي...

شعرتُ بطاقة سلبية تملأ الشقة. زاد تعرق جبينها واحمرار وجهها، وسقطت مغشيًا عليها. حملناها إلى السرير، بينما نرجس تصرخ ظنًا منها أنها ماتت. حقنت إبرة في وريدها... وانتظرنا حتى استفاقت.

كنا قد اتفقنا مع أماني أن تأتي لزيارة ابنتها، لتكون مفاجأة سارة لها. دخلت من الباب، فبعثت روح دعاء من جديد. أعاد صوت أمها وابتسامتها لها الحياة. ظلت تستنشق رائحة أمها لدقائق. قبَّلَتْها من أخمص قدميها إلى قمة رأسها. وبعد صمت قالت دعاء: "إن خسرت شيئًا فليس إلا البُعد عن أمي." بعدها لم ننطق بكلمةٍ، تحدثت قبلاتهما ودموعهما. أخفت دعاء رأسها في حِجر أمها كطفلةٍ كسرت كأسًا وتخشى العقاب، لا كقاتلة ينتظرها الإعدام. بقيتا على هذا الحال، ولما طال الصمت، ذكَّرت الجميع بموعد جلسة النطق بالحكم، وبأن الوقت قد حان للمغادرة.

وقبل أن نغادر، همست دعاء في أذني بشيء!

❊ ❊ ❊

٣٤

دعاء

حين أمسكت الدكتورة هويدا بذراع أمي وغادرتا الشقة، تذكرتُ جدي سعد، حين أخذ أمي مِنا.

وأنا في طريقي إلى المحكمة، بالكاد استطعتُ العبور وسط حشود غفيرة من الرِجال والنساء، الشباب والشابات، الإعلاميين والمحامين، والكاميرات. كانت الشرطة النسائية، من حولي يدفعن الناس عني، خوفًا منهم عليّ أو خوفًا عليهم مني. لا أدري! ما أعلمه هو أن الدكتورة هويدا ستعمل بِمَا طلبته منها في آخر مرة زارتني فيها. همست في أذنها:

"أريد نهاية، لا أتذكر بعدها شيئًا مِمَا مضى!"

في قاعة المحكمة، رأيتُ جدتي حسناء بعكازها الخشبي، وكانت الدموع تحجب عدستي نظارتها. لا أدري، هل كانت تبكي عليّ أم على ابنها؟ أم علينا معًا! رأيت أمي سُعاد وبناتها، والعم أسعد، والخالة جميلة، والخالة حنان. وبالقرب مني، عند السياج الحديدي الذي يأكله الصدأ، كان هناك مكان فارغ، أظنه لأمي وجمال. شعرتُ بخواء داخلي، وتخيلتُ أمي خاوية هي الأخرى من كل شيء. رأيت الجميع يضعون أيديهم على قلوبهم، بينما كانت جدتي حسناء تدعوا قبل أن يقاطعها دخول القُضاة ونداء الحاجب:

"محكمة. القضية رقم ١٢٩ لعام ٢٠٣٠م."

هتف القاضي:

"استنادًا إلى اعتراف الجانية، وتحقيقات النيابة العامة، والأدلة المقدمة لدينا، التي تفيد بأن الجانية ارتكبت جريمتها مع سبق الإصرار والترصد، واستنادًا لتقرير الدكتورة هويدا فيصل الكامل، الذي يفيد بأن المتهمة لا تشكو من أية أمراض عقلية أو نفسية... حكمت المحكمة على المتهمة دُعاء طه عامر بالإعدام شنقًا. رُفعت الجلسة."

❁ ❁ ❁

٣٥

هويدا

بعد أن نطق القاضي بالحكم، تعالت الصرخات والبكاء. أصوات تختلج، ودموع تذرف، وآراء تتباين، حول الحكم، والتقرير النفسي. منهم من رأى أن تودع دعاء في مشفى الأمراض العقلية، لا أن يُلف حول رقبتها حبل المشنقة، ومنهم من رأى أن الإعدام قليلٌ في حقها.

في اليوم التالي زرتُ الخالة أماني. سألتني:

- هل قصَّرتُ في حق ابنتي حين لم أهيئ لها البيئة المناسبة؟ أنا المذنبة الوحيدة، أليس كذلك؟

حاولت كبح دموعي، لكني لم أستطع. قلت:

- ليس لكِ يد فيما جرى يا خالة. لا لوم عليك. هي أقدارنا، نكتبها كما نشاء أحيانًا، أو تُكتب علينا، ولا نملك سوى تنفيذها. قدر دعاء، إن لم تكن قد كتبته بنفسها، فهناك من أملاه عليها، لكنها لم تكن يدك التي كتبته، بأي حال.

سلمتها رسالة أخيرة من دعاء، كانت قد كتبتها قبل النطق بالحكم.

"إلى أمي...

أنا غنيةٌ بكِ حدّ الثراء، وكثيرةٌ بكِ حدّ الفيضان، وعظيمةٌ بكِ حدّ

التقديس، وضعيفةٌ حدّ العجز من الوفاء لك بحقكِ...

لم أشأ لك أن تكملي حياتكِ في السواد، كالجدة حسناء من أجلنا.

أستودعك الرحمن التي لا تضيع ودائعه."

وقبل أن أنصرف سألتني أماني:

- لِمَ كذبتِ في التقرير!

قلت:

- كانت ستقضي مدة علاجها في مشفى لا تعرفين ماذا يُفعل بهن هناك! بعدها ستخرج إلى مجتمع لا يغفر، وستعيش في جحيم. إثبات الجنون في حالتها ربما يكون جنونًا أكبر، والموت مرةً واحدة أرحم من الموت كل يوم. قالت لي: "أريد نهاية لا أتذكر بعدها شيئًا مِما مضى." فلندع الجميع يراها مُذنبة... ولندعها تنام بسلام أخيرًا.

قبَّلت أماني الورقة، وقالت:

- هل يجوز أن أُدفن معها يا دكتورة؟

❋ ❋ ❋